الجاهلية

مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي

الدكتور يحيى الجبوري

١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م

مطبعة المعارف ـ بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الجاهلية

مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي

الدكتور يحيى الجبوري

١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م

مطبعة المعارف ـ بغداد

المقدمة

هذا الكتاب في حقيقته مقدمة لكتاب بعده في أدب العصر الجاهلي واتجاهاته ، وقد حاولت ان اقدم لأدب الجاهلية بدراسة موجزة بعض الايجاز عن حياة العصر، تلقى الضوء على أهم الجوانب التي تعين على فهم الادب وتوضح قضاياه وتفسر ظواهره . وحين مضيت في بحث هذه الجوانب ، وجدت ان الموضوعات التي علي ان اطرقها أو أرى ضرورة في بحثها قد كثرت وبرزت أهمية توكيدها وتوضيحها .

وقد توفرت أثناء البحث مادة غزيرة وصفحات طوال، فأجريت القلم فيها حذفا وتشذيبا واختصارا ، فبقى بين يدي ما لابد من بقائه، اذ يتعذر الاستغناء عنه والتلاعب به ، فان في ذلك ثلما للفكرة الاساسية وجورا على الموضوع الذي اريد .

وقد وجدت ان هذه الفصول التي تراها بين يديك قد اكتملت وتحددت وجمعتها وحدة فكرية وموضوعية ، وان ضمها الى دراسة اخرى سيخرجها عن وحدتها ويحملها ما لاتطيق . فكان ـ لكل ذلك ـ ان افردت هذه الدراسة في كتاب مستقل مستكمل الجوانب واضح المنهج .

ولا شك ان دراسة العصر الجاهلي على اهميتها ، تحف بها كثير

من المشكلات ، ولذلك فلا بد للباحث ان يكون حذراً من اطلاق الاحكام والفرضيات بالنسبة لطبيعة الحياة وظروف العصر ، وليس من شأن هذا البحث ان يفيض في دراسة العصر ، فان في ذلك سعة لمن يريد ان يفرغ للعصر الجاهلي فيدرس تاريخه ولغته وأحواله العامة ، وذلك أمر يخرج بي عن طبيعة المنهج الذي رسمت، وانما همي هنا أن أدرس العصر بالقدر الذي يعين على فهم الشعر الجاهلي وحياة الشعراء ويبين نزعاتهم ويفسر كثيراً من المثل والتقاليد التي يتردد صداها ـ وما زال ـ في الشعر العربي .

ولعل من أصعب الامور وأشدها عسراً أن يحاول المرء رسم صورة للعصر صادقة وواضحة وموجزة في آن واحد، وهذا ماحاولت ان افعله في هذه الفصول .

لقد نظرت في قضايا الجاهلية فوجدت ان لي رأيا في كثير منها قد يخالف ما تعارف الناس عليه ، وقد كان في نفسي شيء من بعض القضايا التي يظنها الناس اموراً بديهية مسلما بها ، فأردت ان اعرف وجه الحق اولا، وأثبت ماهداني اليه البحث ثانيا ، وأبيّن ما ارتضيت من آراء كونتها الدراسة الفاحصة الممحصة ثالثا . وقد دللت على وجهة نظري بكثير من الادلة والشواهد ، معتمداً في ذلك على مصادر بحث اصلية متقدمة .

وقد بنيت هذه الدراسة على خمسة فصول متكاملة مترابطة ، ففي فصل عرب الجاهلية وقفت عند مفهوم الجاهلية وحددت معناها وناقشت الآراء في تسميتها ودلالتها وأوضحت الرأي الذي ارتأيه . وكذلك وقفت عند اهل تلك الجاهلية وميزت بين عرب الحاضرة

وأعراب البادية وبينت الفارق بينهما وصلة هؤلاء بأولئك ، و كيف نظر الاسلام و المسلمون الى العرب و الاعراب، حتى اذا اطمأن البحث الى تحديد المفهوم و إزالة اللبس ودفع الوهم ، مضيت في دراسة العصر الجاهلي وكان أول ما يجب معرفته ان اتعرف على القبائل العربية واثبت مواضعها و اعرف تحركاتها وأبيّن علاقاتها وصلاتها وما يترتب على هذه الصلات من تحالف أو حروب و هجرات و اسفار ، و افسر و كذلك علاقة هذه القبائل بالامارات العربية التي قامت في العراق والشام ودومة الجندل، وقد وقفت قليلا عند هذه الامارات وبيّنت طبيعة تكوينها وأثرها في حياة الجزيرة وحياة أبنائها اهل المدر منهم واهل الوبر ، لما كان بينهم وبين ملوك هذه الدول من صلات ودية حينا وحربية في اكثر الاحايين .

ونظرت في حياة العرب الاجتماعية فتعرفت على طبيعة حياتهم وعيشهم ، ونصيبهم من الحضارة ، وقد ازحت الصورة الخاطئة التي تصور العرب في البادية جفاة متبدين اصحاب رحلة ونقلة ، و اوضحت ان لكل قبيلة منازل في الصيف ومنازل في الشتاء. فاذا تنقلت في الصحراء فانها تتنقل ضمن رقعة محددة مبينة ، وبينت ان البادية لم تكن منقطعة عن الحاضرة، بل متصلة بها تأخذ منها وتعطيها ،فبينهما صلات وثيقة وتبادل وزواج ، و كثير من القبائل لها بادية وحاضرة. و اذا امعنا النظر في طبيعة المجتمع العربي نجد ثمة صلات تجمع بين القبائل وتؤلف قلوبهم على مثل عليا يحترمونها و يجلونها ، ويستوى في ذلك السادة منهم والعبيد ، البدو و الحضر ، وجماع تلك المثل : الكرم والشجاعة و المروءة وحماية الجار والوفاء و الحلم والتسامح .

ونظرت في معايش القوم فوجدتهم يختلفون في ارزاقهم سواء في الحاضرة ام في البادية ، فمنهم الغنى الميسور ومنهم الفقير المدقع ، وكانت طبيعة حياتهم قد حددت معاشهم وابرز مواردهم في البادية الغارة والصيد والاعتماد على ما تدره حيواناتهم ، اما في الحاضرة فقد نشطت التجارة وقامت الزراعة والصناعة ، ولكل ذلك مواضع معينة واناس معروفون . وكان لمكة النصيب الاكبر من التجارة ، كما كان لرجالها اليد الطولى في تنشيط التجارة وتوسيع رقعتها .

اما الناحية الحضارية والعقلية من حياة العرب فقد حاولت اولا ان افند المزاعم الباطلة حول العصر الجاهلي ووصف اهله بالتأخر والبدائية والانعزال، وحاولت ان اجلو الغشاوة المفتعلة عن الصورة الاصيلة لحياة العرب، فهم اولو حضارة عريقة وصلات بالعالم المجاور ، وقد ساعد ذلك اتصالهم بجيرانهم من الامم التي تتجر واياها او تحظر اسواقها . فكان هنالك تبادل ثقافي بين العرب والفرس وبينهم وبين الروم والحبش والهنود وغيرهم من الامم . وقد ساعد ذلك الاسواق والتجارة وكثرة الاسفار التي يقوم بها تجار العرب، ثم وجود الجاليات الاجنبية في قلب البلاد العربية .

وظهرت عند العرب جملة علوم كان اهمها معرفتهم بالنجوم ومواقعها وانوائها ، والرياح ومهابها ، وقد غنيت اللغة العربية باسماء المطر والسحاب والرياح ، وألّفوا كتبا كثيرة في ذلك . كما برعوا بالطب والبيطرة ، وان خالطت الخرافة بعض علومهم ، وكان لهم بصر بالفراسة والقيافة ، ولهم علم واسع بالتاريخ والاخبار والايام منذ اقدم الازمنة اما الانساب فقد برعوا بمعرفتها وضبطها ، فمرفوا

اصول كل قبيلة وفروعها واخبارها وايامها وأولوا ذلك عناية فائقة . وقد ظهرت لديهم الحكم والامثال التي يصح ان نستدل بها على رقى عقليتهم ونضج تجاربهم ونظرتهم الصائبة الى الحياة .

ووقفت عند الحياة الدينية لعرب الجاهلية ، وناقشت مفهوم الشرك الذي يطلق على اهل ذاك العصر ، وتوصلت الى ان الشرك يفهم من تقديس معبودات مع الله سبحانه على انها وسائط يتخذونها للتشفع لهم عند ربهم ، لا على انها شريكة في ملك الله او انها خالقة مدبرة . وان العرب كانوا على دين ابراهيم دين التوحيد ، وهم بعد يؤمنون بالله الواحد القادر الخالق الرازق الذي بيده امر كل شيء . وقد دخلت الاصنام في حياتهم في عصر متأخر ، وبينت سبب دخولها وكيفيته . ونظرت في مدى تمسك العرب بدينهم فوجدت ان الاعراب اقل احتفالا بالدين واهتماما بالاصنام من العرب المتحضرين .

وقد تبينت لدينا ديانات في الجزيرة كانت تنافس الوثنية الدين العام للعرب ، منها الحنيفية دين ابراهيم ، وقد شهدت المدن بخاصة مجموعة من هؤلاء الاحناف ، الذين كانوا يترقبون الدين الجديد ويبشرون به . وهناك ديانتان اخريان موحدتان كان تأثيرهما محدودا ضيقا ، هما : اليهودية والنصرانية اللتان لم تستطيعا ان تدحرا الوثنية او تقللا من شأنها . وكان الى جانب ذلك كله ديانات جاءت من الامم المجاورة ، مثل المجوسية والدهرية وعبادة النجوم والكواكب وغيرها .

وبعد :

فارجو ان اكون قد قدمت في هذا البحث بعض ما اصبو اليه

من خدمة العربية وتراثها ، فلها علي يد لاتجحد وفي قلبي لها حب لا يفنى، وقد نشدت وجه الحق في كل سطر كتبته، وكل رأى ارتأيته، وقد وزعني اليقين الصادق عن الحماس الضال الكاذب ، فان اصبت فذلك حسبي ، وان اخطأت فما انا الا امرؤ ضعيف يصيب قليلا ويخطىء كثيرا ، وسبحان من له الكمال وحده ، فمنه السداد وبه التوفيق .

والحمد لله اولا وآخرا

يحيى وهيب الجبوري

تمهيد

بلاد العرب

جزيرة العرب او شبه جزيرة العرب ، اكبر شبه جزيرة في العالم، تقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلو متر مربع وكانت في الازمنة الغابرة الموغلة في القدم خصبة مزروعة عامرة بالسكان ، اذ تأتيها الرياح الغربية المشبعة بالغيوم والتي تمطر مرتفعات سورية وفلسطين، فتمطر الجزيرة ايضا مطرا غزيرا تجرى به السيول في الاودية الكثيرة، وقد بقيت الاودية العميقة في قلب الجزيرة وانحائها من آثار تلك السيول الجارفة والامطار الغزيرة التي هي سبب الحياة فيها .

ويتميز سطح الجزيرة بسهل منحدر من الغرب نحو الخليج العربي ومنخفضات ارض الرافدين وترتفع على هذه المهامه والبطاح الواسعة الشاسعة سلسلة جبال محاذية لساحل البحر الاحمر ، ترتفع ارتفاعا شاهقا اذ يبلغ في الشمال عند مدين تسعة آلاف قدم ، ويشمخ في الحجاز جبل السراة الذى يبلغ عشرة آلاف قدم وفي اليمن جنوبا اثنى عشر الف قدم وتنحدر الارض انحدارا تدريجيا نحو الشرق ، وانحدارا فجائيا قصيرا نحو الغرب حيث البحر الاحمر .[1]

(١) انظر الهمداني ـ صفة جزيرة العرب ص ٦٧ ط ليدن وقد افدنا في هذا الفصل من جملة مراجع حديثة اهمها : جزيرة العرب ـ حافظ وهبة وتاريخ العرب ـ =

وترتفع هضبة نجد في المنطقة الشمالية الوسطى حوالي ٢٥٠٠ قدم وفيها سلسلة جبال تعرف بجبال شمر ، واهم قممها جبل أجـأ وهو من الغرانيت الاحمر ويبلغ ارتفاعه ٥٥٥٠ قدما فوق سطح البحر، وهناك جبال اخرى تمتد وراء السهول الساحلية من جهات الجزيرة الثلاث تتفاوت في الارتفاع اعلاها الجبل الاخضر الذي يبلغ ٩٩٠٠ قدم وهو الموضع الوحيد المرتفع من الناحية الشرقية اذ ان المنطقة الشرقية هي منطقة الانحدار .

اما بقية الارض غير الجبال والهضاب فانها في الغالب صحارى ودارات ، والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه ، منهـا بادية الشام التي يعرف قسمها الجنوبي بالحماد ، و كذلك بادية العراق التي تعرف ببادية السماوة .

وتتميز الصحراء العربية بثلاثة انواع من الاراضي هي :

اولا : النفود :

وهي بادية متسعة تزيد رقعتها على مائة الف كيلو متر مربع ذات رمال متموجة بيضاء تضرب الى الحمرة تسفيها الرياح فتجعل منهـا كثبانا او تلالا تغطي الجزء الشمالي من الجزيرة بين نجـد وبادية الشام وبين نجد والاحساء وفي جنوب الجزيرة في الربـع الخالي ، ويمكن تحديد النفود[1] بوادي السرحان شمالا ، وجبلي أجـأ وسلمى (جبل شمّر) جنوبا وتقع واحـة تيماء في الجنوب الغربي من صحراء النفـود

= جواد علي الجزء الاول . وتاريخ العرب فيليب حتى وجرجى وجبور ١/١٥-٢٧ ومحاضرات في تاريخ العرب - صالح احمد العلي ١/١٣-١٥ وتاريخ الجاهلية - عمر فروخ ص ٢٦-٣٦ .

(١) النفود او النفوذ بالذال المعجمة : التي يصعب اجتيازها والطريق النافذ هو الطريق السالك . انظر اللسان والقاموس : نفذ .

ومدينة حائل في الجنوب الشرقي . وهي على العموم جافة الا في مناطق قليلة هي الواحات التي تصيبها الامطار احيانا فتنبت فيها المروج الخضر فيكثر خيرها وترعاها ابل البادية وانعامها .

ثانيا – الدهناء :

وهي ارض ذات رمل ناعم لا تصلح للنبات ولو سقطت عليها الامطار ، تحتل وسط الجزيرة على شكل قوس كبير يمتد من الشرق حتى الغرب ، وتنحصر الدهناء بين النفود شمالا والربع الخالي جنوبا ، والربع الخالي جزء من الدهناء منحصر بين عمان شرقا واليمن غربا ، وقد عرف الجانب الغربي من الدهناء باسم الاحقاف[1] .

وتصيب الامطار هذه المنطقة في الشتاء ، فتنتشر فيها الخضرة وترعاها الماشية ، اما في الصيف فتقفر الارض ويصيبها الجدب فلا تصلح للحياة . اما الربع الخالي فما زال مجهولا والمعلومات عنه قليلة ، وقد قام برترام توماس بمحاولة – سنة ١٩٣١ – لقطعه واجتيازه من البحر العربي نحو الخليج الفارسي واستغرقت رحلته ثمانية وخمسين يوما ، ووصف رحلته هذه في كتابه (العربية السعيدة)[2] فذكر الرمال المغردة التي كان العرب يظنونها اصوات الجن ، واكتشف

---

(١) الحقف : المعوج من الرمل او الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف . انظر اللسان والقاموس والتاج مادة (حقف) وهو منطقة الشحر قرب حضرموت اليمن ، وفي الاحقاف منازل عاد وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم وباسم (الاحقاف) سميت السورة قال تعالى : (واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف) سورة الاحقاف ٢١ وأخو عاد هو هود عليه السلام .

(٢) Bertram Thomas :
Arabia Felix Across The Empty Quarter of Arabia (New York 1932)

بحيرة من المياه المالحة عرفت فيما بعد انها من متفرعات خليج العرب جنوبي قطر .

ثالثا - الحرار :

الحرار جمع حرة وتسمى اللوبة او اللابـه ، ارض ذات حجارة نخرة سود تتكون من الحجارة والمعادن الى المصهورة التي تسيل من البراكين[1] ،وتكثر الحرار في المناطق الغربية والوسطى من الجزيرة وتتجه نحو الشمال حتى حوران الشرقية ، وفي معجم البلدان ذكر لحرار كثيرة تبلغ الثلاثين واشهرها حرة المدينة التي نشبت فيها وقعة الحرة المشهورة سنة ٦٣هـ وتعرف بحرة النار قرب خيبر ، ويقال بل حرة واقم التي تنسب اليها وقعة الحرة[2] . ومن الحرار المشهورة في الجزيرة : الخدرية حرة لبني سليم ، وحرة واقم في المدينة وحرة ليلى بديار قيس وحرة الحوض بين المدينة والعقيق وحرة شوران وغيرها[3] وهناك حرار كثيرة منبثة في وسط الجزيرة وغربيها تصعد الى الشمال حينا وتهبط الى الجنوب في حين آخر، ويقال ان البراكين التي قذفت هذه الحمم والحجارة كانت تثور بين آونة واخرى فتقذف بنيرانها، وكان آخرها في الاسلام في عهد عمر سنة ١٩هـ فأمر عمر بالصدقة فتصدق الناس فانطفأت[4] .

هذه انواع الصحاري في بلاد العرب،وفي وسط هذه الصحاري

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط (حرر)

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان (حرر)

(٣) المصدر السابق ومعجم ما استعجم ـ البكري ٢/٤٣٠ـ٤٣٨ والقاموس واللسان (حرر)

(٤) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ٢/٢٣٨ ط القاهرة ١٢٩٢هـ

والدارات تنفسح هضبة نجد التي تتكون من طبقة من الحجارة الكلسية تتخللها بعض البقع الرملية[1] .

هذا التقسيم الذي شهدناه من حيث طبيعة الارض، اما التقسيم الذي اصطلح عليه الجغرافيون من حيث اثر البيئة الجغرافية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فانهم يقسمون بلاد العرب الى المناطق او الاقاليم الخمس التي هي :

١ - الحجاز :

وارضه جبلية خصبة كثيرة المياه ، وبها وديان كثيرة اشهرها وادي القرى بين العلاء والمدينة . والقسم الشمالي من الحجاز يسمى ارض مدين وكانت تسكنها جذام[2] وارض حسمى وبها آثار لامم بادت ومن جبالها ارم الذي ورد ذكره في القرآن كما يرجح[3] وتكثر في الحجاز المواضع البركانية والحرات ، وتنتشر فيه الآبار والعيون وبخاصة في القرى والمدن حيث يحدث الخصب والزرع ، مثل يثرب او المدينة كما سميت حين دخلها الرسول الكريم ، ووادى القرى شمالي يثرب ، ومثل مدينة قرح التي كانت تقوم فيها سوق عظيمة في الجاهلية ، وكذلك مدينة الحجر او مدائن صالح وقومه ثمود ، وحول المدينة قرى ذات زرع سكن اكثرها اليهود مثل خيبر وفدك ، وقد سكنت هذه المنطقة بعض القبائل العربية قبل الاسلام مثل عذرة وبلى وجهينه ، اما قضاعه فكانت عشائرها منتشرة نحو الشمال حتى شبه جزيرة سيناء . ومن مدن الحجاز المهمة مكة ذات المركز

---

(١) تاريخ العرب فيليب حتي ١/١٩

(٢) اللسان (جذم)

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان ٣/٢٧٢

التجاري والديني ، وفي جنوبي مكة الطائف وهي مصيف المكيين منذ القديم وتبعد عن مكة حوالي خمسة وسبعين ميلا ، والطائف عند جبل غزوان وتحيط بها اودية وآبار كثيرة .

٢ - تهامة :

وهي المنطقة الساحلية الممتدة على البحر الاحمر او بحر (القلزم)، وتسمى الغور او السافلة لانحدارها[1] وتعرف في الجنوب بـ (تهامة اليمن) وهي ارض رملية شديدة الحرارة ، وفي تهامة بعض الثغور والمرافئ. مثل الحديدة في اليمن، وجدة وينبع في الحجاز، وشمالي الحجاز ثغر صغير يعرف بالوجه ويقال انه ثغر مدينة الحجر المعروفة الآن بمدائن صالح ، وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء . وتمتد جبال السراة شرقي تهامة من الشمال الى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة اقليم الحجاز .

٣ - اليمن :

وتشمل اليمن مدنا كثيرة منها حضرموت ومهرة والشحر وظفار وعمان ، وبهذا كان الجنوب كله يدعى اليمن ، وقد يخصص بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة وهي بلاد اليمن المعروفة الان، ويعرف القسم الساحلي بتهامة اليمن ، تفصل بينها وبين هضبة اليمن جبال هي امتداد لسلسلة جبال السراة ، وفي اليمن كثير من الاودية والسهول والاراضي الخصبة التي ترويها الامطار الموسمية ، وبذلك عمّ فيها الخير وقامت حضارتها منذ القديم حتى جاء وصفها في القرآن الكريم : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال

---

(١) معجم البلدان ٢/٤٣٧ و ٦/٢١١

كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبة ورب غفور)[1] ، ومن أشهر أودية اليمن الخصبة تبالة ، وبيشة المشهورة بالاسود والمنسوبة اليها فقالوا : (أسد بيشة) . وتعرف المنطقة الشمالية من اليمن المجاورة للحجاز باسم عسير وفيها منازل بجيلة في الجاهلية ، ومن مدن اليمن المشهورة صنعاء وعدن ونجران وظفار وزبيد .

٤ - العروض :

وهي صحار وسهول ساحلية وتشمل اليمامة[2] والبحرين وما والاها وقطر ومنطقة الاحساء والقطيف وفيها كثير من العيون[3] وفي الجنوب الغربي من القطيف تقع (العقير) وهي ميناء صغير[4] وعلى مقربة منها تقع (الجرعاء) وهي مدينة تجارية قديمة وسدوس ومنفوحة ويظن ان موطن قبيلتي طسم وجديس البائدتين في هذه المنطقة ، وتمتد البحرين من البصرة الى عمان وبها منازل قبيلة عبدالقيس في الجاهلية . ومن اعمال عمان صحار ودبا وكانت تقام فيها سوق مشهورة في الجاهلية ، وتشمل العروض منطقة الكويت الحاضرة وكانت تعرف بكاظمة ، ومن المدن القديمة هجر المشهورة بكثرة تمرها حتى قالوا في الامثال : (كجالب التمر الى هجر) اما الخط التي تنسب اليها الرماح الخطية فهي القطيف نفسها .

٥ - نجد :

تقع نجد وسط الجزيرة وتشمل وادي الرمة ، وما حاذى الحجاز

---

(١) سورة سبأ ١٥

(٢) وقد عدها ياقوت فى نجد كما سيأتى انظر معجم البلدان ٨/٥١٦ .

(٣) جزيرة العرب فى القرن العشرين ـ حافظ وهبة ص ٦٨ ط لجنة التأليف ١٩٤٦م

(٤) المصدر السابق ص ٧٢ ـ ٧٣

وتهامة من نجد يعرف بنجد العالية ، وما جاور العراق منهـا يعرف بنجد السافلة ، و المنطقة الشرقية منها عند اليمامة تعرف باسم الوشوم اما شماليها الى جبلي طىء (أجـأ وسلمى) فيعرف باسم القصيم وهو الرمل الذي ينبت فيه الغضا ، والغضا ضرب من الأثل واليه ينسب اهل نجد فيسمون اهل الغضا ، وتشمل نجد اليمامة عند ياقـوت[١] وتسمى بـ (جوّ) ومركزها حجر وهي موطن طسم وجديس ومن مدنها منفوحة وبها قبر الأعشى الشاعر ، وسدوس وهي مدينة قديمة.

وتنفسح ارض نجد من الشمال على بادية الشام التي تكثر فيهـا الاودية والواحات ، وبادية العراق او بادية السماوة ، وتفصل بينهما وبين نجد صحراء النفود الواسعة ، اما من الناحية الشرقية فتكون صحراء النفود فاصلا بين نجد وبين البحرين وتسمى هنـا الدهناء او (رملة عالج) وهي منازل تميم وضبّة في الجاهلية والاسلام .

المنـاخ :

مناخ الجزيرة بعامة جاف حـار قليل المطر صيفا ، وبارد شديد البرودة شتاء ، وعلى الرغم من ان البحار تحيط بالجزيرة من جوانبها الثلاث ، فان جو الجزيرة بقى جافا حارا ، فرياح السموم التي تهب صيفا تمتص الرطوبة قبل ان تتمكن من التوغل داخـل الجزيرة ، فلذلك لم تستطع هذه البحار تلطيف جو الجزيرة ، اللهم الا سواحل المحيط الهندي التي تسقط عليها الامطار التي تحملها الرياح الموسمية في الصيف وخاصة في اليمن . اما الحجاز فالأمطار فيه قليلة ، وقد

---

(١) معجم البلدان ٨/٥١٦

يستمر الجفاف اكثر من موسم، واذا جاءت الأمطار في بعض المواسم فقد تأتي غزيرة تنشأ منها السيول ، ويتحدث البلاذري عن سيول مكة فيخصص لها فصلا في كتابه فتوح البلدان[1] ، وامطار الحجاز تحملها الرياح الغربية التي تهب من الناحية الغربية الشمالية وهي أمطار شتوية ، اما المناطق الداخلية الوسطى فأمطارها قليلة ولذلك صارت أمطار نجد عزيزة يتمناها الناس فأسموها غيثا .[2]

واهم المناطق التي ينزل عليها المطر مدرارا ، اليمن وعسير ، فاكتست لذلك ارضها بالخضرة وانتظمت الزراعة فيها وامتلأت اوديتها بالمياه . اما اقاليم الجزيرة الوسطى وجبل شمّر فتسقيها الامطار المتأتية من مياه الخليج الفارسي وكذلك عُمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة فان الامطار تسقط فتسقى الارض الزراعية الخصبة .

وحين ينقطع مدد السماء عن الجزيرة وتحتبس الامطار ، يعم الجدب والجفاف ويحل المحل والهلاك ولذلك سمى الجدب سنة بالنسبة للموسم فيقولون (اصابتنا سنة اتت على الأخضر واليابس) . وقد دفعتهم قلة الامطار الى النقلة ـ وخاصة في نجد ـ في طلب العشب والكلأ والماء .

ومن هذا نجد ان الزراعة المنتظمة التي تعتمد على الامطار الموسمية هي في المناطق الساحلية الجنوبية والشرقية ، وهي في مناطق الحضر المستقرين ، على نقيض المناطق الشمالية التي تعتمد على المراعي ، وقد

---

(١) ص ٥٣ ـ ٥٥ ط ليدن ١٨٦٦م

(٢) واسموها جودا وحياً لما في ذلك من معنى العون والنصرة والخير والكرم والحياة ،

قام الاستقرار في المناطق الشمالية في الواحات المنتشرة في انحاء من الجزيرة[1] وبعض المدن التي تكثر فيها الآبار والمياه الجوفية، ويمكننا أن نعزو سكن كثير من القبائل الكبيرة في نجد الى هذه الواحات والمياه الجوفية، حيث يمتد وادي الرمة ذو المياه الجوفية في قلب نجد. وكذلك يعود الفضل في خصوبة حضرموت وزراعتها الى الاودية العميقة التي تحوي المياه في باطنها. فالجزيرة وان حرمت من الانهار الجارية، فانها تسقى من العيون الثرة والمياه الجوفية والوديان التي تملؤها السيول شتاء، وما تجود عليها السماء من مطر غزير في السواحل، عزيز قليل في نجد والحجاز. ولم تعدم قمم الجبال من الاجواء الباردة التي ربما جمد الماء فيها كما هو معروف عن جبل غزوان بجوار الطائف[2]، وقد تسقط الثلوج في صنعاء شتاء، كما تسقط على قمة جبل حضور الشيخ في اليمن[3].

وقد رسمت هذه الوديان[4] والآبار ومواقع الواحات اتجاه الطرق لقوافل التجارة والمواصلات، فالقوافل عادة تتبع طرق المياه وتحاذيها وبذلك كان طريق العراق محاذيا وادي الرمة مارا ببريدة في نجد،

---

(١) الواحات هي الدارات التي يكثر ذكرها في الشعر الجاهلي كدارة جلجل ودارة الارام والابرق وغيرها والدارة كل ارض واسعة بين جبال، ويصف الشعراء الدارات على ان فيها مياها غامرة يقصدونها للهو والشرب كما نعرف من وصف امرىء القيس لدارة جلجل ودمون وداوات العرب كثيرة احصى الفيروز ابادي اكثر من مائة وعشر. انظر القاموس المحيط (الدار) ٣١/٢ .

(٢) مسالك الممالك ص ١٩ ط ليدن ١٨٧٠م

(٣) تاريخ العرب ـ فيليب حتى ٢١/١

(٤) يرجح الدكتور صالح العلي ان هذه الوديان كانت في الازمنة القديمة مجاري انهار . محاضرات في تاريخ العرب ١٤/١ ط ٣

أما طريق الشام فيمر بوادي سرحان متاخما لساحل البحر الاحمر، وهناك خطوط اخرى معظمها ساحلية حول الجزيرة، وبعضها داخلية تخترق الجزيرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي متابعة الواحات الوسطى ومبتعدة عن مناطق الجفاف والربع الخالي على الخصوص[1].

نبات الجزيرة :

ان طبيعة المناخ هذه بما فيها من جفاف الهواء، وقلة المياه وملوحة التربة، لم تساعد النباتات على النماء والازدهار والانتشار، ولذلك توزعت النباتات في الاماكن الخصبة ذات العيون والامطار. وأهم نبات الجزيرة هو النخل الذي يكثر في الحجاز، وتمر النخيل أو البلح هو أهم طعام البدوي واكثره، فان قوام الحياة في البادية هو التمر واللبن وفي القليل لحم الابل، فالتمر هو الطعام الصلب الوحيد الذي يتناوله ابناء الجزيرة[2]، وبحسب البدوي الاسودان : الماء والتمر، ونوى التمر يسحق ويصنع منه اقراص لعلف الابل، ومنه يصنع النبيذ وخاصة في الطائف.

اما الحبوب فيزرع الشعير في وادي القرى وفدك وخيبر والمدينة، وتكثر الحنطة في اليمن واليمامة وبعض الواحات، وتزرع الذرة في عسير، والارز في عمان والحسا.

وموطن الافاوية في اليمن، كالمر والمر المكاوي وأنواع البخور والطيب. وينمو شجر اللبان على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي ولا سيما في مهرة. ويكثر الصمغ في عسير، اما شجرة البن فقد

---

(١) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ٢١/١

(٢) عيون الاخبار ـ ابن قتيبة ٢٠٩/٣ـ٢١٣ ط القاهرة ١٩٣٠ .

دخلت اليمن من الحبشة في القرن الثامن الهجري وتسمى خمر الاسلام[1] .

وتنمو في الجزيرة انواع اخرى من النباتات منها الطلح الذي ينتج الصمغ العربي ، والغضا الذي منه الفحم الجيد، والسمح الذي تطحن حبوبه فتصنع منه العصيدة . أما الكروم فموطنها المشهور الطائف حيث اشتهرت بالنبيذ المعروف بنبيذ الزبيب . وفي المدن الساحلية وبعض الواحات تنمو الفواكه كالرمان والتفاح والمشمش والموز والبرتقال والليمون الحامض والبطيخ وكذلك قصب السكر[2] .

وتنمو الاشجار الصحراوية في بادية نجد كالطلح وهو شجر عظام ترعاه الابل ، والدوم وهو شجر المقل ، والسدر البري أو الضال ، والسلم والأرطى ، وهناك اشجار ضخمة من الأثل وهي الطرفاء والشوحط والشريان والنبع والغرب، ويتخذ من هذه الاشجار القسي والسهام ، اما الأراك فهو شجر من الحمض تتخذ منه المساويك وتتفكه به الابل بعد أن تشبع لما فيه من ملوحة ومرارة وللأراك ثمر يدعى الكباث . ومن نبات البادية ايضا الشيح والقيصوم والعرمض وهو صغار شجر الاراك والسدر ، ومن مراعي الابل اللذيذة السعدان والبرسيم وهو حب القرظ وهو نوع من كراث المائدة وكذلك الفقع وهو نوع من الكمأة[3] ومن الاصباغ النيل

(١) الكواكب السائرة ــ نجم الدين الغزي ١/١١٤ ط بيروت ١٩٤٥
(٢) تاريخ العرب ــ فيليب حتى ١/٢٢-٢٣
(٣) تاريخ الجاهلية ــ عمر فروخ ص ٣٣ ط بيروت ١٩٦٤

والورس والحنـــاء . ويستعمل الحنظـــل وهو نبات صغير مرّ يشبه البطيخ، لدبغ الجلد وكذلك القرظ وهو ورق شجر السلم، ويستعمل الاشنان في التنظيف كالصابون، ويستعمل نبات السنا دواء مسهلا. ومن النباتات الطيبة الرائحة الآس والعرار وهو بهار البر - زهر بري أصفر - والخزامى وشقائق النعمان وغيرها .

الفصل الاول

عرب الجاهليـة

أريد هنا أن أقف عند نقطتين اراهما على قدر كبير من الاهمية ، اولاهما : الجاهلية حدها ومفهومها . والثانية : أهل هذه الجاهلية من عرب وأعراب والفرق بينهما ، فقد اضطرب مفهوم الجاهلية في كثير من كتابات الكتاب والباحثين ، وراح فريق من النـاس يخلط في هذا المفهوم ويضيف اليه ماليس له ، ويصمه بما ليس فيه، حتى غدت صورة الجاهلية في الأذهان صفة للجهل والجور والبدائية . ولا شك ان ثمة كثيرا من الدوافع املت على الناس ان يفسروا الجاهلية هذا التفسير ، من ذلك العصبية الدينية والعصبية العرقية .

وكذلك اضطرب الناس وخلطوا بين معنى العرب والأعراب ، فنجد أن اسم الاعراب ومدلوله يطلقان على العرب ، ومعنى العرب ينصرف الى الاعراب والبدو الجفاة . وهذا الخلط قديم ، تجده عند ابن خلدون وغير ابن خلدون ممن كتبوا عن العرب وبحثوا في حياتهم ، سواء في ذلك عرب الجاهلية أم عرب الاسلام .

وأحاول هنا أن احدد هذه المفاهيم واوضح دلالاتها على ضوء النظرة الاسلامية مستأنسا بآراء الكتاب القدامى والمحدثين :

(١)

الجاهلية :

يطلق لفظ الجاهلية على عهد ماقبل الاسلام، وقد تفنن المتعصبون من المسلمين وغير المسلمين في ذمها و اطلاق شتى النعوت التي يراد بها الانتقاص والتهوين من امر ذلك العهد حتى ليخيّل للناظر في اقوالهم ان الباطل كان سمة العصر و الضلال طابعه فقالوا: انه الزمان الذي كثر فيه الجهال[١] ، وهو عهد الجهل الذي لا علم فيه أو حرم اهله من أن يجيدوا ضربا منه و ان قل شأنه ، وقد قسم الالوسي ذلك الجهل الى جهل بسيط وجهل مركب فقال : (فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا فأن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا ، فان قال خلاف الحق عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل ايضا كما قال تعالى : « و اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (اذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل)[٢] ومن هذا قول عمرو ابن كلثوم في قصيدته :

ألا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي لا يسفه احد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم اي نجازيهم بسفههم جزاء يربى عليه ... و كذلك من عمل الحق فهو جاهل وان علم انه مخالف للحق ، كما قال سبحانه : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » .

فعنده ان الجاهلية العهد الذي فيه الجهل وفيه الضلال الذي هو

---

(١) محمود شكري الآلوسي ـ بلوغ الارب ١٥/١

(٢) المصدر السابق ١٦/١

عدم الحق وعدم معرفة الحق ، ولذلك يفسر وفق هذا الفهم قول الله تعالى في الجاهلين وقوله في الجهالة وان كانت الآيتان لا يراد بهما المعنى الذي ذهب اليه الالوسي ، و كذلك توجيهه لبيت عمرو ابن كلثوم الى السفه مع ان البيت ينصرف الى الظلم . وقد تفنن كذلك الاستاذ احمد امين في اختيار اقسى الالفاظ وأوحشها لرجم الجاهليين: بالسفه والغضب والأنفة فيفسر الآية الكريمة : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »[1] وفق معناه الذي يريد ، ولا يفوته ان يستفيد من قول عمرو ابن كلثوم :

ألا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ليصف حياة العرب في ذلك العهد بانها مصداق للكلمة (جاهلية) فهي انفة وخفة وحمية ومفاخرة وسفه.[2]

و كذلك ذهب كاتب مقال مادة جاهلية في دائرة المعارف الاسلامية فيزعم ان المعنى الدقيق لكلمة (جاهلية) هو زمن الجهل ... اما الاسلام فهو زمن النور والمعرفة ، وجهل ضد علم ووردت بهذا المعنى كثيرا في اللغة القديمة ووردت اكثر في الازمنة القريبة من الاسلام من ذلك قول عنترة في معلقته :

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك
ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

على ان واقع حال العرب قبل الاسلام يفنّد ما ذهب اليه اولئك

---

(١) سورة الفرقان ٦٣

(٢) احمد أمين ـ فجر الاسلام ص ٦٩

جميعا ، فليس من المعقول ان يقصد بالجاهلية معناها اللفظى الذي هو الجهل ضد العلم والفهم ، فيذهب اولئك يتصيدون كل ما ورد من مادة جهل في الشعر والقرآن والحديث وكلام العرب، لأن من كانت صفاتهم صفات العرب قبل الاسلام، لايصح ان يكونوا ابناء جاهلية جهلا، وعندهم الحضارة العريقة الممتدة فى اعماق الزمان ، ولهم ذلك الفن القولي الممتاز متمثلا في الشعر والخطابة والامثال والرسائل والحكم المأثورة . وفي اكبر الظن ان الكلمة حين اطلقت في اول الامر اريد بها الدلالة على شيوع عبادة الأوثان بينهم ، فلا شك ان من العرب من كان يركع لصنم وينحر لنصب ، ومنهم من عبد كوكبا او اعتنق المجوسية والصابئية دينا ، او كانوا من اصحاب الدهر ، وقد اشار القرآن الكريم في عدة مواطن لذلك ، فالجاهلية على هذا اذا قصدت فان معناها ينصرف الى تلك الوثنية السائدة قبل شريعة الاسلام .

ويذهب معنى الجاهلية من جهة اخرى - غير الدين - الى تلك الحالة الخلقية التي كانت حاضرة في نفوس العرب ، والاعراب منهم بصورة خاصة ، جماعها الغلو في تقدير الامور والاسراف وسرعة الغضب ، فقد كان من العرب من يفرط في الكرم حتى يغدو سرفا وتبذيرا ، ويغلو في الشجاعة حتى تعود حماقة وتهورا ، ويجاوز معنى النجدة الى الظلم . فالكلمة اذن تنصرف الى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم وليس ضد العلم ، ومن هذا قول الشنفرى في لامية العرب :[١]

---

(١) اعجب العجب فى شرح لامية العرب ـ الزمخشري ص ٤٨

ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أرى

سؤولا باعقاب الاقاويل أنمل

والى هذا المعنى يذهب عمرو بن كلثوم في معلقته في البيت المقدم ذكره :

الا لايجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد يتضمن معنى الظلم ايضا . ويعزز هذا المعنى الذي نريد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من استجهل مؤمنا فعليه اثمه) قال ابن الاثير يبيّنه : (اي من حُمل على شيء ليس من خلقه فيغضبه فانما اثمه على من احوجه الى ذلك)[1] .

وقد غدت الجاهلية تثير في نفوس المسلمين شعورا بكراهية عهد وثني مملوء بالظلم والآثام ، فهذا الرسول الكريم يسمع ابا ذرّ يعير رجلا بأمه فيقول مؤنبا ومعاتبا : (انك امرؤ فيك جاهلية)[2] اي فيك روح الجاهلية وطيشها ، تغضب فلا تحلم ولا تصبر ولا تسامح ، على انه من الحق ان نذكر ان العهد الجاهلي عرف كثيرا من الناس وُصفوا بالحلم والصبر والتسامح والحكمة ، ولا يبعد عنا ذكر قيس ابن عاصم وحلمه ، وهرم بن سنان وطيبته وزهير بن ابي سلمى وحكمته وغيرهم كثير ، حتى ان الرسول عليه الصلاة والسلام ليذكر السجايا النبيلة والحياء والمروءة التي تمثلت باعرابي جاهلي مثل عنترة ، فيقول : (ما وصف لي اعرابي قط فاحببت ان اراه الا عنترة) وكان الرسول الكريم قد انشد قول عنترة :

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١٩٢/١

(٢) المصدر السابق

ولقد ابيت على الطوى واظله   حتى انال به كريم المأكل[1]

وفي عموم القول ان المراد من معنى الجاهلية ما يتمثل في الذهن من مفهوم ديني ، فعهد الجاهلية كان قائما على الشرك والوثنية وفيه ضلال وظلم وظلمات ، واما العهد الاسلامي فعلى نقيضه ، هو هداية ونور ، ومصداق ذلك قول الله تعالى : (ليخرجكم من الظلمات الى النور)[2] وقد وردت (الجاهلية) في القرآن الكريم ويراد بها الحط من القيم الخلقية والاعتقادية لذلك العهد ، قال سبحانه : (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)[3] وقوله : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون)[4] وقوله : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى)[5] وقوله : (اذا جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية)[6] وقريب من هذا قول الرسول في حديث الافك : (ولكن اجتهلته الحمية)[7] .

اما فترة الجاهلية فيحددها بعض المستشرقين بانها : (الاسم الذي يطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام ، او بعبارة اخص ، الاسم الذي يطلق على الفترة التي خلت من الرسل بين عيسى ومحمد)[8] وقد اخذ الكاتب هذا القول من الآلوسي[9] دون اشارة

---

(١) الاغاني ٢٤٣/٨
(٢) الحديد ٩
(٣) سورة آل عمران ١٥٤
(٤) المائدة ٥٠
(٥) الاحزاب ٣٣
(٦) الفتح ٢٦
(٧) النهاية في غريب الحديث ـ ابن الاثير ١٩٢/١
(٨) فير ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة جاهلية
(٩) الآلوسي ـ بلوغ الارب ١٥/١

لذلك ويزيد الآلوسي بانها ايام الفترة (وهي الزمن بين الرسولين وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا ، وعلى ماقبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبي والبعث) وفي قول عن ابن خالويه : ان هذا اللفظ حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة . ويحدد نهايــة هذا العهد فتح مكة لا البعثة[1] .

على اننا اذا اخذنا الجاهلية على انها نزعات ومثل وتقاليد، فانها قد استمرت في نفوس كثير من المسلمين بعد فتح مكة ، وقد عادت جذعة فتمثلت في الردة وفي العهد الاموي وما وليه من عهود ، بل نستطيع القول ان كثيرا من عاداتنا ومآتينا الحاضرة إنْ هي الا من آثار الجاهلية ، اما ضابط آخر العهـد فتح مكة فيعنى ان الاسلام قد تمكن من القضاء على اقوى خصومـه وأعظم خطر يهـدد الدين ومثله العليا .

(٢)

العرب والاعراب :

جاء الاسلام دين بشرى وهدى وايمان ، جاء رحمة للناس وأمنا ، فقد ايقـظ الجزيرة العربية من غفوة المت بهـا ، فنهضت بالاسلام لتلبس ـ وتلبس الناس معها ـ ثوب العدل والخير والايمان ، فجدد لها عمرها ورسم لها طريقها و كتب لها عهدا مجيدا . وعلينا هنا ان نتبين اهل ذلك العهد الذين ضمهم الاسلام وهداهم سواء السبيل ، ونجلو لبسا

---

(١) الآلوسي ـ بلوغ الارب ١/١٥

حاصلا وغشاوة مربكة ، ان نفرق بين كلمتين كثيرا ما يقع الخلط بينهما والوهم في استعمالهما ، والكلمتان هما : العرب والاعراب ، فما حد كل منهما ؟

يستعمل القدماء احيانا كلمتي العرب والاعراب في حالة ترادف ، وترد الواحدة مكان الاخرى ، وقد تعمم كلمة العرب فيراد بها الاعراب ايضا ، قال الجوهري : (العرب جيل من الناس وهم اهل الامصار ، والنسبة الى العرب عربي والى الاعراب اعرابي ، والذي عليه العرف العام اطلاق لفظ العرب على الجميع)[1] ويقول الآلوسي عن ابي العباس احمد بن عبدالله : (ان العرب اهل الامصار والاعراب سكان البادية وفي العادة يطلق لفظ العرب على الجميع)[2] .

ويكاد الاجماع ينعقد على ان العرب هم سكان الحاضرة والاعراب هم سكان البادية ، فيذكر الآلوسي ان شيخ الاسلام احمد بن تيمية فى كتاب (الاقتضاء) يقول : (ان لفظ الاعراب هو في الاصل اسم لبادية العرب ، فان كل امة لها حاضرة وبادية ، فبادية العرب الاعراب ، وقد يقال : ان بادية الروم الأرمن ، وبادية الفرس الاكراد ، وبادية الترك التتر ونحوهم[3] . ويذكر ايضا قول اهل التفسير بأن العرب سكان المدن والقرى ، والاعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم . ويوضح هذا ويحدده ما جاء في التنزيل قوله تعالى : (وجاء المعذرون من الاعراب

---

(١) الصحاح مادة عرب وكذلك القاموس المحيط للفيروزابادي

(٢) بلوغ الادب ١٢/١

(٣) نفس المصدر والصفحة

ليؤذن لهم)[1] وفي قوله تعالى : (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم)[2] فبدوية الاعراب واضحة بانهم (حولكم) ومقابلتها بـ (اهل المدينة) تعين ذلك .

ومن الطبيعي ان العقلية البدوية لا يمكن ان تدرك وتستوعب الدين الجديد بسهولة ويسر ، لطبيعة الحياة القاسية التي يحياها الاعراب ، ولذلك كان موقفهم من الدعوة موقف المستخف غير الملتزم بتعاليم الاسلام . ولذلك كثر المرتدون بينهم والناكثون بالعهود والذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ، والقرآن يحكم فيهم بقوله : (الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم)[3] .

هؤلاء الاعراب وقفوا من الدين الاسلامي بالذهنية المتعصبة المغلقة التي لا تدرك معنى الدين وامر الرسالة وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيلهم الجهد والعناء ، فكانوا يمنون عليه اسلامهم ، قيل : قدم عشرة رهط من بني اسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول سنة تسع للهجرة فيهم حضرمي بن عامر وضرار بن الازور ، فقال حضرمي : (يا رسول الله أتيناك نتدرّع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا بعثا) فنزل فيهم قوله تعالى : (يمنّون عليك ان اسلموا قل لا تمنّوا عليّ اسلامكم بل الله يمن

---

(١) سورة التوبة ٩٠
(٢) التوبة ١٠١-١٠٢
(٣) التوبة ٩٧-٩٨

عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين)[1] ، وقد دخل كثير من الاعراب في الاسلام لحاجتهم الى العطاء لارغبة في الايمان، فقد جاء في الاخبار : أن نفرا من بني اسد ثم من بني الحلاف بن الحارث قدموا على رسـول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة ، فاظهروا شهادة ان لا الـه الا الله ، ولم يكونوا مؤمنين في السـر ، وافسدوا طريق المدينة بالعذرات ، واغلوا اسعارها ، وكانوا يغدون ويروحون على رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : (اتتك العرب بانفسها على ظهـور رواحلهـا ، وجئناك بالاثقال والعيـال والذرارى - يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فـلان ...) ويريدون الصدقة ويقولون : اعطنا . فأنزل الله سبحانه فيهم : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) الآيات[2] وقد كانت الاعراب تبطىء على الرسول ولا تجيبه اذا دعاها الى الجهاد ، فكان قد استنفرهم الى الحديبية فتخلفوا عنه ، وخرج مع رسول الله المهاجرون والانصار ومن لحق به من العرب[3] .

وما كانت الاعراب - الا القليل - تنظر الى الرسـول النظرة الدينية التي تراها العرب ، بل كانوا يعدونه رجلا اوتي السلطان على العرب ، فيطيعونه على انه رئيس مقتدر لا نبي مرسل .

وفي هؤلاء الاعراب كان المتعصبون من الكتاب ومن المستشرقين

(١) الحجرات ١٧ وانظر النويري - نهاية الارب ١٨/٣٠

(٢) الحجرات ١٤ ونهاية الارب ١٨/٣١

(٣) المصدر السابق

يوسعون القول والتقوّل حتى يسحبوا مفهوم الاعراب على كل العرب ، وهؤلاء غير اولئك . ومن هنا كان غلوّ أوليري[1] وابن خلدون[2] وغيرهم ممن اعتبروا الاعرابي بوصفه الذي جاء في القرآن ممثلا لمواطن الجزيرة العربية كلها ، غير ملتفتين الى سكان الامصار والقرى ، واهل الدعوة والحضارة ، وحملة العلم والعمران من العرب .

على انه حتى في اولئك الاعراب من يؤمن بالله خالص الايمان وينفق في سبيله مبتغيا رحمته ورضوانه ، وفي هؤلاء كان قول الله تعالى : (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم)[3] .

ومهما يكن من شيء فقد كان العرب المسلمون ينظرون الى الاعراب المتبدين نظرة حذر وارتياب ، وكانوا لا يرتضون لاعرابي تحضّر ان يتبدى ، من ذلك ما روى عن النابغة الجعدي حيث اشتاق الى قومه فدخل على عثمان بن عفان فقال : (استودعك الله يا امير المؤمنين ، قال : واين تريد يا ابا ليلى ؟ قال : الحق بأبلي فاشرب من البانها ، فانى منكر لنفسي ، قال عثمان : أتعربا بعد الهجرة ياابا ليلى ؟ أما علمت ان ذلك مكروه؟ قال : ما علمته ،وما كنت لأخرج حتى اعلمك)[4] . هذه النظرة غير المطمئنة الى الاعراب فسحت مجال

---

(١) انظر تفصيل رأيه في فجر الاسلام ص ٣٣

(٢) المقدمة ص ١٢١-١٢٢

(٣) التوبة ٩٩

(٤) الاغاني ٥/١٠ ط الدار وطبقات الشعراء ص ١٠٦-١٠٧

القالة حول الاعراب وعليهم فهوّن اناس من شأنهم ، واسرف آخرون في وصفهم بكل منقصة وتوحش وطيش وسفه ، وهذا ضرب من التجني لا يتفق والنظرة العلمية الممحصة ، واذا صدق بعض ذلك الوصف على قسم من القبائل ، فان التعميم لا يصح ولا يصدق ، وخاصة اذا عرفنا ان كثيرا من اولئك الاعراب من سكن الحواضر والقرى ، وكان للقبيلة الواحدة حاضرة وباديـة ، والتمازج حاصل بين سكنة الحواضر وسكنة البوادي ، وكثيرا ما تحيا القبيلة الواحدة حياتين: يستقر بعضها المدر فيتحضر ويسكن بعضها ظواهر القرى فيكون في اهل الوبر متبديا ، مثـال ذلك قريش حيث يذكر عنهـا صاحب اللسان : (قريش الاباطح اشرف واكرم من قريش الظواهر ، لأن البطحاويين من قريش حاضرة وهم قطان الحرم ، والظواهر اعراب بادية ، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة)[1] . وكذلك جُهينة كان منها من يسكن في الوبر دون المدر ، في نواحي جبلي رضوى وعزور[2] ، بينما يسكن قسم آخر منها المدر في ينبع : (وهي قرية كبيرة غناء ... فيها عيون غزيرة الماء) ويسكن قسم ثالث منها الصفراء : (قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها)[3] .

واولئك الذين سكنوا الباديـة لم يكونوا كلهم اعرابا بعيدين عن الايمان موغلين في الصحراء قست قلوبهم وغلظت اكبادهم ، بل منهم من كانوا قريبين من المدن ، مطيفين بها متأثرين بعاداتها آخذين

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور مادة (ضحا)
(٢) عرام بن الاصبغ ـ اسماء جبال تهامة وسكانها ص ٧
(٣) المصدر السابق ص ٨

من حضارتها بسبب، فقد ذكر عرام بن الاصبغ في حديثه عن السوارقية قال : (قرية غناء كثيرة الاهل ... كان لبني سُليم فيها مزارع ونخل وفواكه كثيرة ... وهم بادية الامن ولد بها فانهم ثابتون بها والآخرون بادون حواليها ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحجاج)[1] .

وكان الرسول الكريم يفرق بين الاعراب الموغلين في الصحراء والاعراب المقيمين في الضواحي والمستجيبين لدعوة الاسلام ، فقد روى عن ام المؤمنين عائشة انها قالت: (لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نقبل هدية من اعرابي ، فجاءت ام سنبلة الاسلمية بلبن فدخلت به علينا فأبينا نقبله ، فنحن على ذلك الى ان جاء رسول الله ومعه ابو بكر فقال : ما هذا ؟ فقلت : يا رسول الله هذه ام سنبلة اهدت لنا لبنا وكنت نهيتنا ان نقبل من احد من الاعراب شيئا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوها فان اسلم ليسوا بأعراب هم أهل باديتنا ونحن اهل قاريتهم ، اذا دعوناهم اجابوا ، وان استنصرناهم نصرونا)[2] .

يتعين من هذه النصوص ان المقصود بالبادية انما هو ظاهر القرية او ضاحيتها وما احاط بها، وان كثيرا من القبائل كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر متصلين بها مختلطين بسكانها ، وهم غير تلك القبائل الموغلة في الصحراء البعيدة عن العمران الذين قست قلوبهم فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق .

(١) نفس المصدر ص ٦٥
(٢) ابن سعد ـ الطبقات الكبير ٢١٥/٨ ط ليدن

ومن كل ذلك يزداد حذرنا وارتيابنا من الاحكام التي تطلق على العهد الجاهلي، والتي تصوره على انه عهد جهالة وبداوة واعرابية بعيدة عن الحضارة والارتقاء، من غير مراعاة للفروق الواسعة بين البيئات الصحراوية وبيئات البادية القريبة من المدن او القرى، والتي كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد، مواكبة لركب الحضارة، مستجيبة لداعي الاسلام.

الفصل الثاني

الحيـاة السياسية

(١)

القرن السادس هو الزمن الذي مرت به احداث العصر ، وان لم تقف عنده او تبدأ به . وبادية نجد هي مسرح الاحداث التي تدور حولها سياسة العصر وتتأثر بها كثرة القبائل التي سكنت هذه المنطقة ، وان كان اثر الاحداث يتجاوز هذه البقعة ويمتد منها الى الجوانب المحيطة بهـذا الاقليم ، حيث الحجاز ، وبلاد الشام ، والعـراق ، والبحرين ، واليمن .

واذا ألقينا نظـرة على مصور هذا العصر وتوزيع القبائـل فيه فماذا نجد :

ان جغرافيي العرب يتفقون على تقسيم الجزيرة العربية الى اقسام خمسة : تهامة ، والحجاز ، ونجد ، والعروض ، واليمن . وان اختلفوا في ضبط وتحديد هذه المناطـق .[1] وقد توزعت القبائـل – بعد

(١) ينظر تفصيل ذلك في صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ٤٨ وما بعدها ، ومعجم ما استعجم للبكري ١/٧ وما بعدها (السقا ١٩٤٥) ومعجم البلدان ـ ياقوت ٢/٧٦ ومن الكتب الحديثة الجيدة تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ١/٨٦ ـ ١٤٧ .

الهجرات القديمة[1] - على هذا الشكل :

١ - القبائل العدنانية :

نزلت قريش في مكة وما جاورها[2] . ومزينة في جبال رضوى وقدس وآرة وما حولها من ارض الحجاز[3] وسكنت فهم وعدوان جبال السراة في الحجاز ايضا ، وتجاورهم قبيلة هذيل[4] . واستقرت ثقيف في الطائف بعد اجلاء بني عدوان وبني عامر منها[5] . اما ديار هوازن فكانت بين غور تهامة الى ما والى بيشة وناحية السراة وحنين واوطاس[6] ، ونزل الحجاز من القبائل القيسية ايضا ، بنو هلال واكثر بني سليم[7] وكان منزل كنانة في أرض تهامة[8] .

اما في نجد : فبنو عامر بن صعصعة قبيلة لبيد ، وديارهم غربي نجد مما يلي الحجاز[9] ، وكانوا اول امرهم يشتون في نجد ويصيفون في الطائف ، فلما قوى امر ثقيف اجلتهم عن الطائف[10] ، وديار بني كعب ابن ربيعة بالفلج وباديتها[11] ، وغطفان موضعها بالحاجر[12] ، ومنازل

---

(١) ذكر المؤرخون هجرات قديمة للعدنانيين على اثر غزو ملك آشور بلاد العرب وهجرة القحطانيين المعروفة في اليمن . الاغاني ١٣/٧٨ ط الدار ومعجم البكري ١/١٩

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ١/١٢٤ ط القاهرة ١٩٥٥

(٣) معجم البكري ١/٨٨ ط السقا ١٩٤٥ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٤) معجم البكري ١/٨٨

(٥) نفس المصدر ١/٧٧

(٦) معجم البكري ١/٨٧

(٧) معجم البلدان - ياقوت ٢/٢٠٠

(٨) معجم البكري ١/٨٨

(٩) معجم البكري ١/٩٠ وان كانوا قد تنقلوا في اكثر من موضع

(١٠) نفس المصدر ١/٧٧

(١١) نفس المصدر ١/٩٠

(١٢) شرح ديوان زهير ص ٣٢٦ ط دار الكتب

بني اسد مجاورة لمنازل طيء القحطانيين[١] ، وهؤلاء الاخيرون بين جبلي أجأ وسلمى ، ونزلت ضبة وتميم[٢] بلاد نجد ، ثم انحدروا حتى خالطوا اطراف هجر ، ونزلوا ما بين اليمامة وهجر ، ومضى بنو سعد ابن تميم فحلوا رمل يبرين وخالطوا عبد القيس في بلاد قطر ، وذهبت طائفة منهم الى عُمان[٣] .

اما في اليمامة ، فقد نزل بنو باهلة بن اعصر ، وبنو نمير[٤] ، وكذلك بنو تميم[٥] ، اما حاضـرة اليمامة (الحجر) فهي لبني حنيفة[٦] ، وبعد حرب بكر وتغلب انتشرت بكر وعنزة وضبيعة باليمامة فيما بينها وبين البحرين حتى اطراف العراق[٧] . اما قبائل ربيعة : فقد نزلت عبدالقيس البحرين بعد ان اجلت قبيلة اياد عنها ، وسار فريق من عبدالقيس الى عمان وجاوروا الأزد في بلادهم[٨] . ونزلت قبيلتا تغلب والنمر بن قاسط حول نهر الفرات من أرض الجزيرة (جزيرة أقور)[٩] ، ونزلت اياد ـ بعد أن اجلتهم عبد القيس عن موطنهم ـ العـراق في سنداد وعين أباغ ، واصطدموا بالفرس في معارك كان من نتائجها أن تشتت شملهم ، فلحق فريق منهم بالشام ودانوا للغساسنة ، ودخل فريق آخر بلاد الروم[١٠] .

---

(١) ديوان عبيد بن الابرص ص ٨

(٢) ، (٣) معجم البكري ١/ ٩٠ والاغاني ١٩/ ١٠ ساسي حول ونوب تميم على البيت الحرام

(٤) معجم البكري ١/ ٩٠ (٥) معجم البكري ١/ ٨٨

(٦) معجم البكري ١/ ٨٥ ومختصر كتاب البلدان ص ٢٨ ط ليدن سنة ٨٨٠ م

(٧) معجم البكري ١/ ٨٦

(٨) البيان والتبيين ١/ ١٢١ والبكري ١/ ٨٢

(٩) البكري ١/ ٨٦

(١٠) الاغاني ٢٠/ ٢٣ ط ساسي ، انساب الاشراف ١/ ٢٥ ، البكري ١/ ٦٧ .

٢- القبائل القحطانية :

أما القحطانيون فأصلهم من الجنوب ، وهاجر أكثرهم الى الشمال، الا بقية منهم بقيت في اليمن وما حولها . فأما الذين هاجروا الى الشمال واستوطنوا هناك فمنهم : كندة التي رحلت الى نجد وأسست لها امارة في شمالي نجد وبادية الشام ودومة الجندل[١] . والازد التي تفرقت من اليمن فنزل فريق منها البحرين . وعرفت بـ (تنوخ) ، وصعدت الى جنوبي العراق وأسست -لخم أهم عشائرها- دولة المناذرة في الحيرة[٢] .

واستوطن فريق منها بلاد الشام -وهم آل جفنة بن عمرو بن عامر- فغلبوا الضجاعمة وأقاموا دولة الغساسنة[٣] . أما قبائل الأوس والخزرج - وهم بنو ثعلبة بن عمرو مزيقياء - فنزلوا يثرب . وسكن بنو حارثة بن عمرو بمَرّ الظهران بمكة وهم خزاعة . ونزل فريق من الازد عُمان فعرفوا بأزد عُمان ، وفريق آخر استوطن السَّراة ، فعرفوا بأزد السراة أو ازد شنوءة[٤] . وحلت طيء في سُمَير وفَيْد في جوار بني أسد ، ثم غلبتهم على جبلي اجأ وسلمى[٥] . وتفرعت لخم الى فرعين الاول نزل العراق ، وهم آل نصر بن ربيعة الذين آل الامر اليهم بعد جذيمة الابرش ، ومنهم كان امراء المناذرة في الحيرة[٦] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٣٨ ، ديوان عبيد بن الابرص ص ٨ .
(٢) تاريخ الطبري ٤٣٧/١ ، تاريخ سني ملوك الارض ص ٩٤
(٣) السيرة النبوية ١٣/١
(٤) السيرة ١٣/١ وفتوح البلدان ١٥/١ وتاريخ ابن خلدون ٢/٣
(٥) تاريخ ابن خلدون ٢-٢٣
(٦) تاريخ ابن خلدون ٢-٣٦

والفرع الثاني من لخم نزل جنوبي بلاد الشام في فلسطين[1]. وكذلك نزلت جذام جنوبي الشام في الارض الممتدة من حدود ايلة ـ العقبة ـ الى ينبُع محاذية لساحل البحر الاحمر[2]، ونزلت الشام ايضا عاملة (اخت لخم وجذام) جنوبي البحر الميت[3].

وفي الحجاز نزلت قبيلة خثعم ما بين وادي بيشة وتربة وما والاها، وجاورتها قبيلة بجيلة[4]. وسكنت قبائل سعد هذيم - عذرة وحوتكة وجهينة - في وادي القرى[5]. وانتشرت قبيلة بَليّ بين شمالي يثرب الى تيماء فالعقبة[6]، وسكن بنو كلب دومة الجندل وبادية السماوة[7]. اما بهراء، فنزلت بأعالي الشام بين حلب وحماة[8].

أما القبائل القحطانية التي بقيت مقيمة في مواطنها، فأهمها : همدان ومنزلها شرقي بلاد اليمن شمالي صنعاء[9]. ومذحج ومنزلها في تثليث ونجران ونواحيها[10]. والاشعرون شمالي زبيد، وكذلك قرب عك[11]، ومنزل مهرة بالشحر من بلاد اليمن[12]. وكانت قبائل حمير تنزل المنطقة الغربية لظفار حتى عدن وصنعاء[13].

---

(١) صفة جزيرة العرب ١٢٩ (٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٣٧

(٣) المصدر السابق والصفحة وصفة جزيرة العرب ص ١٢٩

(٤) معجم البكري ١/١٠

(٥) المصدر السابق ١/٣٨ وتاريخ ابن خلدون ٢/٢١

(٦) معجم البكري ١/٩٠ وابن خلدون ٢/٢١

(٧) معجم البكري ١/٥٠ وابن خلدون ٢/٢٥

(٨) الاغاني ١٠/٩١ ط ساسي

(٩) صفة جزيرة العرب ص ١٠٩ وابن خلدون ٢/٢٩

(١٠) معجم البلدان ـ ياقوت ٢/٧٦ وابن خلدون ٢/٣٢

(١١) ياقوت ٢/٧٦ وابن خلدون ٢/٣٢

(١٢) معجم البكري ١/٢٧

(١٣) ابن خلدون ٢/١٥ أما قبيلة قضاعة من حمير فكانت في الشام ومنهم كان الضجاعمة الذين ملكوا الشام قبل الغساسنة . تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤

(٢)

على هذا الشكل استقرت القبائل العربية في الجزيرة وتجاور العدنانيون والقحطانيون ، ولم يكن لهذه القبائل دولة تضمهم ، ولا نظام موحد يسودهم ، بل كانت كل قبيلة تكون وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة،وقد تجوز أو ليري فأعطى القبيلة مفهوم الدولة[١] . وقوام القبيلة الاسرة ،وما القبيلة الا اسرة كبيرة تتضخم فتكون قبيلة ،وتنشطر القبيلة الى شطرين أو أكثر ، ويشمل كل شطر سلالة احد ابناء الجد الاكبر وتتسمى باسمه ، وهكذا تستمر القبيلة في التضخم والانقسام على هذا المنوال[٢] . فرابطة القبيلة هي رابطة النسب والدم رابطة الاب الكبير الذي ينتمون اليه ويعرفون باسمه، وقد تكون القبيلة منسوبة الى الام ـ وهذا في القليل ـ مثل مزينة وبجيلة وخندف .

وهذه القبائل متشابهة في تكوينها ونظامها ، فكل قبيلة تقوم على اساس اشتراك ابنائها في الاصل الواحد والموطن الواحد ، وقد يكون هذا الموطن غير مستقر متنقلا مع المراعى ، وتجمع افراد القبيلة تقاليد واعراف تتمسك بها وتحترمها ، والرباط الاقوى في القبيلة هو العصبية ، والعصبية كما يعرفها ابن خلدون (النصرة على ذوي القربى واهل الارحام ، ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة)[٣] .

---

(١) أسماها اوليري : Patriarchal State
Oleary : Arabia before Mohammad . P. 8.

(٢) Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia . P. 3-4 .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٨

فالفرد في القبيلة حريص على هذه الرابطة ، عامل من اجلها، باذل فى سبيلها ما يملك حتى دمه . وافراد القبيلة متضامنون كلهم في المصائب والمسرات ، والجريرة التي يجنيها الفرد يتحملها المجموع ، وقد آمنو بهذه الفكرة التضامنية في الخير والشر حتى ظهرت في امثالهم فقالوا : « في الجريرة تشترك العشيرة »[1] .

وللقبيلة رئيس او شيخ يتزعمها ، ويكون عادة من ذوى السن ، والخبرة ، والحكمة والحلم ، وسداد الرأي وبعد النظر ، والثروة ، والشجاعة ، والكرم ، وطلاقة اللسان بحيث يحوز رضا القبيلة واعجابها ، وينال احترامها ، فالقبيلة ترتضى لها رئيسا او شيخا تتوافر فيه صفات الرجولة والبطولة ، والنجدة ، والكرم ، وعراقة الاصل ، وصفاء النسب . وهذه الخصال هي التي تؤهله للقيادة والزعامة ، ولم يكن من المستساغ في نظر العربي نظام الوراثة الذي عرف عند الملوك . وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل :[2]

انى وان كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهود في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة
ابى الله ان اسمو بأم ولا أب
ولكنني احمى حماها وأتقى
اذاها وارمى من رماها بمنكب

---

(١) مجمع الامثال ـ الميداني ٢/١٤

(٢) انساب الاشراف البلاذري ٢/١٧٩ والشعر والشعراء ص ١٩٢ ط ليدن وفيها خلاف .

والرئيس هو الذي يقود القبيلة في حروبها، ويقسم غنائمها، ويستقبل وفود القبائل، ويقوم بواجب الضيافة، ويعين المحتاج، ويقيل العاثر، ويفك اسرى قبيلته، ويتحمل القسط الاكبر من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات، فكل عظيمة يعصبونها برأسه، ومن ذلك قالوا: (سيد معمم) يريدون ان كل جناية يجنيها احد في العشيرة معصوبة برأسه[1]. ولم يكن شيخ القبيلة مستبداً برأيه، بل يستعين بشيوخ القبيلة وذوي الرأي والشرف فيها، يستشيرهم اذا حزب الامر.

وكان افراد القبيلة يتمتعون بحرية في ظل النظام القبلي، ولهم حقوق متساوية لا يتميز بعضهم على بعض، وفي مقابل هذا كان على الفرد في القبيلة أن يخضع لرأيها ولا يخرج عليه، ولا يكون سببا في تفريق كلمتها، وتشتيت وحدتها، أو الاساءة الى سمعتها فانه اذا غلا في ذلك وكثرت جرائره عرض نفسه للخلع، والخلع أشد عقوبة توجه للفرد في المجتمع البدوي، وفي اللسان «والخليع الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها اولياؤه، فيتبرأون منه ومن جنايته»[2]. ولذلك نجد أن أفراد القبيلة جميعا يحرصون على سمعة القبيلة ومصالحها وصيانة حقوقها، وان أحدهم ليضحي لها بماله ونفسه، فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بفرديته وحريته، يجد أن تحقيق تلك الحرية في نطاق القبيلة وعصبيته لها.

على أن هذه العصبية لم تكن واسعة الحدود بحيث تشمل فكرة الامة والجنس العربي، بل كانت على الغالب ضيقة الحدود، لاتكاد

---

(١) عيون الاخبار ـ ابن قتيبة ١/٢٢٦

(٢) اللسان مادة (خلع)

تتجاوز حدود البطن ، أو القبيلة في مفهومها الضيق ، ولذلك نجـد كثيراً من بطون القبيلة الواحدة في صراع وقتال[1] . على الرغم من شعورها بوحدة نسبها . فكانت العصبية للرهط أو البطن، تطغى على العصبية الجامعة للقبيلة ، فما قولك بالشعب أو الامة .

ومصلحة القبيلة هي وحدها التي تحدد صلاتها بالقبائل المجاورة لها ، سواء ربطتها بها رابطة النسب، أم لم تربطها . وربما آثرت القبيلة بدافع المصلحة أو الجـوار أو الضعف محالفة قبيلة اخرى ، وتنضـم القبيلة الضعيفة عادة الى قبيلة قوية ، تحميها وترد عنها العدوان[2] . والحلف - كما هو ظاهر من اسمه - بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، فكانت المحالفات تتم بمظاهر دينية ، ليشعر المتحالفون بخطر هذا التحالف ، فهم ينحرون هديا ، ويغمسون أيديهم في دمه ، ولذلك سميت اليمين المغلظة (غموسا) أو كانوا يغمسون أيديهـم بطيب ، وقد عرف من ذلك حلف المطيبين الذي تعاقد فيه بنو عبد مناف ، وبنو زهـرة ، وبنو تمـيم ، وبنو أسد ، ضد بني عبد الدار وأحلافهم ، أو كانوا يوقدون ناراً - فعل المجـوس - كما فعلت قبائل مرة بن عوف الذبيانيين حين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم فسمي حلفهم باسم (المحاش) وغير ذلك[3] . وحين تدخل القبيلة في

---

(١) كما اقتتل فرعا بني عامر - بنو جعفر بن كلاب، وبنو أبي بكر بن كلاب بسبب ابن ضبا الاسدي - النقائض ص ٥٣٣ ط أوربا وكذلك قتال بني جعفر والضباب في يوم هراميت. النقائض ص ٩٣٧ ومعجم البلدان ٨/٤٥٠ وكحرب الفساد بين بطون طيء . ابن الاثير ١/٣٨٨

(٢) معجم البكري ١/٥٣ ط السقا

(٣) تاج العروس (محش)

حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون الكيد عنها، وللقبيلة الحق في أن تنفصل عن الحلف متى شاءت، لتنضم الى قبائل أخرى في أحلاف غيرها، ولذلك كثيراً ما تضعف بعض الاحلاف وتحل محلها أحلاف أخرى. وكانت بعض القبائل - وهي قليلة - تجد في نفسها القوة والعزة فلا تدخل في حلف من الاحلاف. وأولئك يعرفون بـ (جمرات العرب)[1].

كانت القبائل تسعى الى المحالفات طلبا للامن، ودفعا للعدوان، وايثارا للعافية ومع ذلك لم تستطع هذه المحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لاتفه الاسباب، بل ربما كان الحلف من اسباب الحرب، تسعى اليه القبيلة اذا هي طلبت ثأرا عجزت عنه، او نزلت بها مصيبة قعدت دون دفعها.

وحياة القبائل بعد ذلك سلسلة حروب ومنازعات، تنشب لاسباب ذات خطر أو ليست بذات خطر، واهم خصوماتهم تقوم على مراعى السوام ومواقع المياه، والغزو الذي اتخذوه وسيلة من وسائل العيش، والثأر الذي لا يغسل عاره الا الدم، وبذلك كانت حياتهم عمادها الحرب والغارة. والاستعداد توقعا للخطر، فهم شاكو السلاح، حاضرو العدة، معتصمون بصهوات جيادهم، يجدون في قعقعة السيوف ووقع الاسنة وصهيل الخيل، استجابة لمعاني البطولة والقوة في نفوسهم. وقد سميت حروبهم ووقائعهم اياما لانهم يتقاتلون نهارا فاذا جاء الليل حجزهم وفرقهم، فاذا حل اليوم الثاني عادوا للقتال.

---

(١) زهر الاداب - الحصري ١/٢٥ ط السعادة ١٣٢٢هـ/١٩٥٣م

وايام العرب كثيرة بحيث يقال ان ابا عبيدة (معمر بن المثنى ـ ٢١١ هـ) الف كتاباً [1] جاء فيه ذكر مائتين والف يوم ، ولم يصل الينا هذا الكتاب . ولكن كتابه شرح النقائض ، حفظ طائفة كبيرة من تلك الايام . وقد ذكر الميداني في كتابه (مجمع الامثال) اثنين وثلاثين ومائة يوم ضبط اسماءها وبين احداثها والقبائل التي اشتركت فيها .

وقد كانت الايام هذه مادة غنية للشعراء . فكان الشعر صدى واضحا لها ، حكى وقائعها ووصف هولها وبكى قتلاها ، وتوعد الخصوم ، وطالب بالثأر ، وافتخر بالنصر وعيّر بالهزيمة .

وقد كانت الكتب التي عنيت بالايام [2] دواوين وملاحم رائعة صادقة ، حفظت ذلك الشعر ، الذي ما زالت روعته وفخامته تهز سامعيه ، وتبعث فيهم روح البطولة والبسالة والحماسة .

(٣)

وحياة العرب في الجاهلية لم تكن مقتصرة على هذا الشكل القبلي العصبي الضيق ، الذي تتحكم فيه الحمية ، وتعبث به العصبية والنزعات الفردية ، فقد انشأ العرب في قلب الجزيرة وأطرافها دولا وممالك واذا شئت الدقة ، امارات ، ونعرف منها ـ في هذه الفترة التي سبقت الاسلام ـ ثلاث امارات : امارة المناذرة في العراق . والغساسنة في الشام ، وكندة في شمالي نجد عند دومة الجندل . وقد

---

(١) الفهرست ـ ابن النديم ص ٨٩ ط أوربا .

(٢) ام الكتب التي اعتنت بالايام : نقائض ابي عبيدة ، والاغاني ، وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير ، والعقد الفريد ، ونهاية الارب للنويري ، ومجمع الامثال للميداني وغيرها .

كان حظ الامارتين الاوليين عظيما ، من الترف والرخاء ، والحضارة ، وقوة السلطان .

فاما المناذرة : فقد اتخذوا الحيرة مستقرا لهم وعاصمة[1] . وهم من قبيلة لخم اليمنية . وقد جاءوا العراق هم وبعض قبائل عربية - عرفوا باسم تنوخ - في حوالي القرن الثالث الميلادي[2] ونشأت امارة المناذرة في كنف الدولة الساسانية ، التي رأت ان تستفيد من استقرار العرب على حدودهم الغربية ، ليقوموا بحماية هذه الحدود ضد من يعتدي عليهم من الروم ، او عرب البادية ، وكان ذلك في عهد سابور الاول (حوالي ٢٤١ - ٢٧٢ م). واول ملك للمناذرة هو عمرو ابن عدي اللخمي ثم ولي بعده ملوك من اسرته ، كان اهمهم واشهرهم (النعمان الاعور)[3] او السائح . صاحب قصري الخورنق والسدير ، وكتيبتي الشهباء والدوسر . وكان معاصرا لـ (يزد جرد الاول) (٣٩٩ - ٤٢٠) الذي ارسل اكبر ابنائه (بهرام جور) الى النعمان في الحيرة لينشأ في بيئة عربية ، ويتعلم الفروسية وفنون الصيد ، وينعم بصحة البادية ، وقد اتقن بهرام اللغة العربية واحب اهلها ، فلما تولى الحكم بعد ابيه قرب عرب الحيرة اليه ، وذكر لهم نصرتهم اياه حين شب النزاع بينه وبين اخيه حول العرش بعد موت ابيهما يزد جرد[4] .

ومن ملوك المناذرة اللامعين : المنذر بن ماء السماء (حوالي

(١) تقع الحيرة على ضفة الفرات الغربية على بعد ثلاثة أميال من المكان الذي بنيت فيه الكوفة . والحيرة لفظ سرياني معناه الحصن . المنتظم - ابن الجوزي ١٧١/٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٦/٢

(٣) سمي السائح لأنه كان تزهد وهجر الملك في زمن بهرام جور . أبو الفداء ٧٠/١

(٤) مروج الذهب - المسعودي ٤٠٢/٢ ط اوربا

٥١٤ - ٥٥٤) صاحب الغريين المشهورين ، ويومى النعيم والبؤس[١] .
و كان المنذر معاصرا لـ (قُباذ) ملك الفرس، و كان قباذ قد اعتنق المزدكية واتخذها دينا رسمياً للدولة . وأراد ان يغرى المنذر بها . فلما رفضها المنذر عزله وولى الحارث بن عمرو امير كندة مكانه . الا ان الايام لم تمهل قباذ ،فسرعان ما هلك وخلفه كسرى انو شروان ،الذي كان يبغض المزدكية ، فاعاد المنذر الى حكم الحيرة[٢] . وقد عرف المنذر بغاراته الشديدة ضد الغساسنة حتى قتل في يوم (أباغ)[٣] .

وخلف المنذر ابنه عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩ م)[٤] الذي عرف بالمحرق ، لانه قتل مائة رجل من تميم حرقا بالنار يوم أوارة باليمامة ، وكان طاغية مستبدا كرهه الناس والشعراء فهجوه ، وهوصاحب طرفة والمتلمس ، وقصته معهما مشهورة ، وفيه يقول الشاعر :[٥] .

ابى القلب ان يهوى السدير وأهله
وان قيل عيش بالسدير غرير
به البق والحمى وأسْد خفية
وعمرو بن هند يعتدي ويجور

وقد قيل ان عمرو بن كلثوم التغلبي قتل عمرو بن هند ثأرا

---

(١) الاغاني ١/٨٦-٨٨

(٢) المختصر فى أخبار البشر ١/٧١

(٣) ابن الاثير - تاريخ الكامل ١/٣٢٦

(٤) الطبري ٢/٩٤ ط الحسينية - ويحدد جرجي زيدان تاريخ حكمه بسنة ٥٦٣م العرب قبل الاسلام ص ١٨٥-١٨٦ .

(٥) الاغاني ٢١/١٢٦ ط ساسي .

لكرامة امه ليلى ، حين أرادت هند ان تذلها بأن تستخدمها[1] .

وكان اخر ملوك المناذرة النعمان الثالث بن المنذر الرابع (٥٨٠ ـ ٦٠٢) المكني بابى قابوس ، الذي امتد سلطانه الى البحرين وعمان ، وشهرت لطائمه التي كانت اجارتها سببا في حروب شغلت قبائل قيس ردحا من الزمان. وكان الشعراء يؤمون بلاطه ، ويحظون برعايته ، فقد ذكرت كتب الادب اخبارا عن جملة من الشعراء منهم: النابغة الذبياني (وفي النعمان قال اعتذارياته المشهورة) والمنخل اليشكري ، ولبيد ، والمثقب العبدي ، وغيرهم[2] .

وكانت نهاية النعمان في سجن كسرى الثاني الذي نكل به ورماه تحت ارجل الفيلة فحطمته . لأنه قتل عدي بن زيد العبادي. وبسببه كانت وقعة ذي قار ، حيث انتصرت قبيلة بكر ـ حمية للنعمان ـ على الفرس وعلى اياس بن قبيصة الطائي . الذي نصّبه الفرس خلفا للنعمان. وبقى أمر الحيرة مضطربا حتى فتح المسلمون العراق عام ٦٣٣ م . واذعنت الحيرة لخالد بن الوليد[3] .

* * *

واما أمارة الشام ، فقد اسسها الغساسنة ، وهم ـ كالمناذرة ـ

---

(١) الاغاني ٥٢/١١ ط الدار والشعر والشعراء ١١٨-١١٩ ط ليدن . ويشير عمرو بن كلثوم الى ذلك في قوله من المعلقة :

تهددنا وأوعدنا رويدا　　　متى كنا لامك مقتوينا

(البيت في شرح المعلقات للتبريزي ص ١١٧ ط لايل)

(٢) الاغاني ٣/١١ ط الدار

(٣) المختصر في اخبار البشر ٧٢/١ وتجارب الامم ـ ابن مسكويه ص ٢٥٠-٢٥٢ ط ليدن .

من عرب الجنوب نزحوا الى الشمال . مع قبائل كثيرة اهمها جذام ، وعاملة ، و كلب ، وقضاعة . وقد اقاموا امارتهم في شرقي الاردن، ولم يتخذوا لهم حاضرة بعينها . وان كانت منطقة الجولان اشهر مناطقهم، واشتهرت الجابية كذلك بانها كانت مقراً لملوكهم فعرفت بجابية الملوك[1] . كما عرفت جلّق - بالقرب من دمشق - من ضمن منازلهم .

وتاريخ الغساسنة غامض على خلاف تاريخ المناذرة الذي كان مكتوبا ومحفوظا في بيع الحيرة . قال ابن الكلبي : « إني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة الحيريين ومبالغ أعمال من عمل منهم لآل كسرى ، وتاريخ نسبهم ، من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها »[2] . أما تاريخ الغساسنة فقد كتب باليونانية ولم تكن صلة العرب باليونانيين مثل صلتهم بالفرس ، وندر منهم من كان يتقن اليونانية ، ولهذا كثر الاضطراب في تاريخ الغساسنة عند مؤرخي المسلمين .

لقد قامت دولة الغساسنة في أواخر القرن الخامس الميلادي ، (حوالي ٤٩٢م)[3] بعد أن تغلبوا على الضجاعمة ، فقربهم الرومان منهم وجعلوهم درعا واقيا لهم ولحدودهم ضد غارات الفرس و المناذرة .

وأول مؤسس لدولتهم هو جفنة بن عمرو مزيقيا ، لذلك يسمون آل جفنة . وأشهر ملوكهم وأقواهم الحارث بن جبلة (٥٢٨-٥٦٩م)

---

(١) تاريخ العرب - جواد علي ١٥٢/٤-١٥٤

(٢) تاريخ الطبري ٣٧/٢ ط اوربا

(٣) يحدد دوبرسيفال تاريخ اقامة دولة الغساسنة بالشام بحوالي سنة ٤٩٢م :
C. De Perceval : Essai Sur L'histoire des Arabes. V. 2. P. 189.

المعروف بالحارث بن أبي شمّر الذي عرفت حروبه ضد الفرس وضد المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة ، الذي قتله الحارث في يوم حليمة . وقد كان ذلك على عهد الامبراطور (جستنيان) الذي انعم على الحارث بالاكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع عرب الشام ، ومنحه لقب فيلارك ، أي شيخ القبائل ، وبطريق ، وهو أعلى لقب بعد الامبراطور ، وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة[1] . وخلفه ابنه المنذر بن الحارث (٥٦٩-٥٨١م) الذي هزم أبا قابوس ملك الحيرة سنة ٥٧٠م في معركة عين أُباغ[2] . وكان آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الايهم الذي حارب المسلمين في صفوف الروم ، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب ثم ارتد الى النصرانية . قال ابن خلدون : « ولما فتح المسلمون الشام وأسلم جبلة ، واستشرف أهل المدينة لقدمه حتى تطاولت النساء من خدورهن لرؤيته لكرم وفادته ، وأحسن عمر نزله وأحله أرفع رتب المهاجرين ، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلا من بني فزارة ، وطىء فضل ازاره وهو يسحبه في الارض ، ونابذه الى عمر في القصاص ، فاخذته العزة بالاثم ، فقال له عمر : لا بد أن أقيده منك ، فهرب الى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠هـ »[3] على أن الاخبار تصور جبلة وهو نادم على ردته ، أسف على فعلته في عصيان عمر ، وتروى له في ذلك هذه الابيات :[4]

---

(١) O'Leary : Arabia before Mohammad. P. 21.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ١٣٥/٤

(٣) تاريخ ابن خلدون ١١٢/٢ ط بيروت

(٤) الاغاني ١٥/١٦ ط بولاق

تنصرت الأشراف من عار لطمة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفني فيها لجاج ونخوة
وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت امي لم تلدني وليتني
رجعت الى القول الذي قاله عمر

وقد كان بلاط الغساسنة ـ كما كان بلاط المناذرة ـ مقصد الشعراء الذين نعموا بالهدايا والهبات، مثل حسان بن ثابت، والنابغة الذبياني، والاعشى، والمرقش الاكبر، وعلقمة الفحل، وغيرهم.

هاتان الامارتان العربيتان على حدود فارس والروم كانت العلاقة بينهما علاقة حرب ودماء وثارات، وقد قامت بين هاتين الامارتين، امارة ثالثة لم يكن ولاؤها لملوك فارس او الروم، بل كانت تمحض ودها لعرب اليمن من الملوك الحميريين (ملوك سبأ وذي ريدان ويمنات) وتلك هي امارة كندة ذات الاصل الجنوبي ايضا، وقد قامت هذه الامارة في القرن الرابع الميلادي شمالي نجد، واتخذوا دومة الجندل حاضرة لهم[1]. وقد عرف من ملوك هذه الامارة ـ التي لم يكن لها شأن الامارتين السابقتين ولا حضارتها ـ حُجر الملقب بآكل المُرار، الذي دانت له القبائل الكثيرة في نجد، وامتد نفوذه حتى اليمامة، وكان فيمن دان له بالطاعة قبيلتا بكر وتغلب، وان تمردت القبيلتان بعد عهده، حين ولى الحكم ابنه عمرو المقصور، ثم

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٢١٥/٣

قامت الحـرب بين بكر وتغلب ودامت طويلا قيل انها استمرت اربعين عاما ، وتلك هي حرب البسوس .

وكان خير عهود كندة ، واشدها نفوذا ، وأوسعها رقعة ، عهد الحارث بن عمرو ،حيث دانت له قبائل نجد واصلح بين بكر وتغلب فدانتا له ، وقد نظم حكمه بأن اقام ابنه شرحبيل على بكر ، وابنه الثاني معد يكـرب على تغلب ، وولى على قبائـل قيس عيلان ولده سلمة ، اما الابن الرابع حجر ابو امرىء القيس الشاعر فقد حكّمه على بني اسد . وكان من قوة الحارث، وسعة سلطانه ، ان عقد محالفة بينه وبين امبراطور بيزنطة ،وشن حملات على المناذرة ، فوفق في غير معركة . ولما خلع قباذ ملك الفرس المنذر بن ماء السماء عينه حا كما على الحيرة ـ كما مر بنا ـ غير ان الامور لم تستقم للحارث ، فسرعان ما مات قباذ ،وجاء كسرى انو شروان ، فعزل الحارث واعاد المنذر الى حكم الحيرة[1] . واشتد الصراع بين الحارث الكندي وبـين المنذر ، وكانت نهـاية الحروب ان قتل الحارث وتداعت دولته ، واختلف ابنـاؤه بعده ، فاقتتلوا فـيما بينهم فقتل كل من شرحبيل وسلمة ،وجن معد يكرب وثارت بنو أسد على حجر فقتلته، وحاول امرؤ القيس ابنه ان يسترد ملـك ابيه ويثأر من بـني أسد فخابت مساعيه ، وكانت نهايته حين رحل الى امبراطور بيزنطة ليستعين به على محاربة المنذر فلم يعنه ومات في تلك الرحلة .

ومهما يكن من شيء ، فان امارة كندة لم تبلغ من المجد والسلطان

(١) المختصر في اخبار البشر ٧١/١

واسباب الحضارة والرخاء، ما بلغته امارة المناذرة في العراق، ولا امارة الغساسنة في الشام، وكان عهدها قصيرا، ونفوذها مقتصرا على عـرب البادية، على حين كانت الامارتان الاخـريان تتمتعان بسلطانهما على سكنة الحواضر والبوادي على حد سواء.

هذه هي الصورة العامـة للحياة القبلية والحضرية في القـرن السادس، وهي صورة عرّفت بعلاقات سكان الجزيرة وارتباطاتهم ونظمهم وطبيعة الحكم عندهم، ونظرتهم القبلية التي حددت صلاتهم بالدول الاجنبية. وهذا هو الجانب السياسـي من هذه الحياة فما نصيب المنطقة من الحيوات الاخرى الاجتماعية والفكرية والدينية؟ ذلك ما أحاول أن أبينه فيما يلي من فصول.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

(١)

العرب في الجزيرة العربية قسمان : أهل وبر وبادية ، وأهل مدر وحاضرة ، فالمناطق التي يجـودها المطر ، وتكثر فيها المياه والابار ، تكون مناطق زرع ورعي واستقرار ، ثم تقوم فيها الابنية ويكثر العمران وتنشأ فيها أسباب الحضارة ، وتنشط التجارة والاسواق ، وسكان هذه المناطق هم أهل المدن التي كانت حـول الجزيرة ، في الحجاز واليمن والعراق والشام ، وقليلا ما تكون في قلب الجزيرة، لانها صحراوية او جبلية مجدبة الحياة فيها قاسية ، فلا تتفق والحياة المستقرة ، فيحتاج لذلك سكانهـا الى الرحلة والنقلة ، طلبا لمساقط الغيث ومنابت الكلأ . واذا قلنـا الرحلة ، فـلا نعني بها التجوال المستمر الذي لا قرار فيه في ارض معروفة ، او بقعة معينة ، بـل لكل قبيلة منازل في الصيف، ومنازل في الشتاء معلومة مبينة. ومع كل ذلك ، فان هذا التقسيم الاجتماعي بين البدو والحضر ، لايفهم منه انقطاع البادية عن الحاضرة او انعزالها، فاذا صح ان بعض القبائل المتبدية كانت منقطعة متوحشة، لاهم لها الا الغزو وانتجاع الكلأ،

فان كثرة القبائل كانت على صلة دائمة بالمدن ، تتزود منهـا وتتأثر بها ، وان حياة المدن نفسها كانت حياة قبلية ، فما يثرب الا مستقر لقبيلتي الاوس والخزرج ، والطائف كانت مصطاف بني عامـر ثم مستقر ثقيف ، ومكة مدينة قريش . والاوضـح من هذا - في أن البادية لم تكن بمعزل عن الحاضرة .. ان القبيلة الواحدة قد يكون لها حاضرة وبادية في آن واحد : فقريش لها حاضرة ولها بادية ، جاء في اللسان : (قريش الاباطح اشرف واكرم من قريش الظواهر ، لان البطحاويين من قريش حاضرة ، وهم قطـان الحرم ، والظواهر اعراب بادية ، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة) .[1] وقبيلة مزينة كانت موزعة بين الجبال والقرى ،فقسم منها سكن جبل ورقان[2] ، وقسم آخر نزل في جبلي القدسين وقسم ثالث في جبلي نبهان وبقيتها استوطنت في قرية الفُرع ، وهي قرية كبيرة غناء كما يصفها عرام السلمي[3] . وكذلك الامر في جهينة فقد كان منها من سكن الوبر في نواحي جبلي رضوى وعزور ، وسكن قسم آخر قرية ينبع ذات المزارع وعيون المياه الغزيرة ، وسكن قسم ثالث من هذه القبيلة قرية الصفراء التي تكثر فيها المزارع والنخيل وعيون المياه ،وموقعها فوق ينبع مما يلي المدينة[4] . والامثلة على هذا كثيرة .

تلك القبائل التي سكنت البوادي او التي سكنت الحواضر ، لم

---

(١) اللسان مادة (ضحا)

(٢) اسماء جبال تهامة وسكانها - عرام بن الاصبغ السلمي ص ١٦ تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧٣هـ .

(٣) اسماء جبال تهامة وسكانها ص ١٨-١٩

(٤) المصدر السابق ص ٨

تكن طبقة واحدة متساوية وانما هي ثلاث طوائف اجتماعية : ابناء القبيلة ، ومواليها ، وعبيدها .

(أ) فأبناء القبيلة الخلص الذين ينتمون اليها بالدم، هم عماد القبيلة وقوامها وعليهم واجب حمايتها والدفاع عنها والعصبية لها .

(ب) ثم الموالي الذين هم ادنى منزلة من أبناء القبيلة، وهؤلاء اما ان يكونوا : موالي بالجوار او الحلف ، وهو ان يحتمي بعض الافراد بقبيلة اخرى غير قبيلتهم ، فتتعهد بحمايتهم ، او يحتمي بفرد من أبناء القبيلة فيكون مولاه ويعيش في ظل القبيلة ولكل منهما ان يرث صاحبه اذا مات قبله ، وحقوق المولى ـ على كل حال ـ لا تبلغ حقوق الاصيل ، فلا يستطيع المولى ان يجير على القبيلة كما يجير ابنها عليها ، وسرعان ما تنعقد بين المولى وجاره رابطة قوية ، فالحامي يحافظ على عهده وجواره ، ويحرص على الوفاء له ، فإنه كان من اقبح العيوب عندهم نقض العهد والغدر ، وهم يحقرون من يقعد عن نصرة جاره أو يغدر به ، حتى انهم كانوا يرفعون بذلك لواء في الاسواق تعييرا وتشهيرا ، قال الحادرة (قطبة بن أوس) يخاطب امرأة :[1]

أسميَّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ

رُفع اللواء لنا بها في مجمع

أو يكون المولى من الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جناياتهم، فيستجير أحدهم بقبيلة اخرى فتجيره ، ويكون كأحد أبنائها له مالهم

(١) المفضليات ص ٥٦ وحماسة البحتري ص ٢١٦ ط ليدن او ١٤١ ط لويس شيخو .

وعليه ماعليهم ، ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك ، كالشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد وغيرهم . على أن الخلع لم يكن هيناً ميسوراً ، وما كان يحدث إلا في حالات نادرة معدودة ، فالفرد عزيز على قبيلته وهو حريص عليها حرصه على حياته .

ومن الموالي أيضا العبيد المعتقون، فهم في حماية القبيلة وتكون العلاقة بين المعتق والعتيق ولاء ، فلا ينسى العتيق فضل سيده وحسن صنيعه .

(ج) وطائفة ثالثة في القبيلة هي: العبيد، وكانوا عادة من اسرى الحروب أو ممن يجلب من الأمم الاخرى ، كالأحابيش (الرقيق الاسود) المجلوب من الحبشة وما حولها[1] وكان هؤلاء العبيد أقل مكانة من الموالي ، ويقومون بالاعمال الشاقة المرهقة[2] ، وكانت حالتهم بائسة مزرية، ولا سيما الذين كانوا في ملك اناس قساة القلوب غلاظ الاكباد ، وقد كان في مكة كثير من العبيد، وكانت قريش تستخدمهم في حراسة قوافلها التجارية وفي الحروب، يدل على ذلك اشتراك وحشي وغيره في يوم أحد ، وقول كعب بن مالك في مقتل حمزة بن عبد المطلب :

فلاقاه عبد بني نوفل يبربر كالجمل الأدعج

وقوله ايضاً يصف جيش قريش يوم أحد وفيهم العبيد :[3]

فجئنا الى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع

---

(١) المحبر ـ محمد بن حبيب ص ٣٠٦ـ٣٠٨ . وقد ذكر ابناء الحبشيات في الجزيرة.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ص ٥١ ـ ٥٢

(٣) السيرة النبوية ١٣٦/٢ ، ١٣٨ والاغاني ٢٨/١٥ ط ساسي .

(٢)

ويجمع أبناء القبيلة هؤلاء ـ الخلص منهم والموالي والعبيد ـ ولاء، وعصبية، وتضامن، أحكم عراه حرصهم على شرف القبيلة ومجدها، فالاخلاص للقبيلة رباط وثيق بين الجميع، وعليهم ان يضحوا بكل شيء في سبيلها، وان الفردية التي عرف بها العربي لتفنى وتذوب في القبيلة، وهو يرى ان خير القبيلة خير له، وعليه ان يتحمل اوزارها، وينعم بخيرها، ويهب لنصرتها حين يدعوه الداعي، وهو مع قبيلته على كل حال، سواء عليه أكانت قبيلته تلك غاوية ام راشدة، ومصداق ذلك قول دريد بن الصمة :[1]

وهل أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية أرشد

ولم يكن امر القبيلة فوضى ـ كما قد يبدو ـ بل كانت لها اصول مرعية في داخلها، تنظم علاقة الافـراد بعضهم ببعض، كما ان لها نظامها الخارجي الذي يحدد صلاتها بالقبائل الاخرى، وهناك روابط عامة ومثل عليا يلتقى عندها العرب جميعا، لانهم يرون فيها بغيتهم التي تكسبهم العزة والرفعة والمجد والذكر الحميد، وتلك المثل جماعها المروءة والخلال الطيبة، مثل: الكرم والامانة والوفاء وحماية الجار والحلم وسعة الصدر والاعراض عن شتم اللئيم والنجدة والقوة والصبر عند البلاء .

وأبرز خصلة يعتز بها العربي ويتميز بها عن غيره هي الكرم

---

(١) الاصمعيات ص ١١٢ ط دار المعارف. وشرح المرزوقي على الحماسة ٢/٨١٥ ط هارون . غزية : من قبائل بني جشم

والسماحة والبذل ، ومهما قيل عن أسباب الكرم ودوافعه عند العرب ، من قسوة الحياة ، وجدب الصحراء ، والمحل وانتشار الفقر ، ونفاد الزاد ، فان الكرم في العرب سجية متأصلة في نفوسهم ، فهم يلقون الضيف بالبشر والترحاب ويبذلون له أجود ما لديهم من طعام وخير طعامهم لحم الشياه والابل [1] ، ولم يكن كرمهم خاصا ضيق الحدود ، بل كانوا يكرمون الغريب والبعيد ، من يعرفونه ومن لا يعرفونه ، حتى عدوهم اذا نزل فيهم استبشروا بمقدمه واكرموا وفادته ، كانوا يكرمون سراة الناس ووجوههم ، كما يكرمون فقراءهم من اليتامى والارامل والبائسين والمرملين ، بل كان فخرهم باطعام الفقراء اشد من غيره ، لم يشذ احد منهم عن ذلك غني او فقير ، وما قولك بقوم يغيرون على أموال الاغنياء فيقسمونها بين الفقراء ، ويتساوى في طبيعة الكرم هذه السادة والعبيد والخلعاء والصعاليك ، فهذا عروة بن الورد الفارس الصعلوك [2] كان يجمع الى خيمته فقراء قبيلته عبس والمعوزين منهم والمرضى ، يتخذ لهم حظائر يأوون اليها ويفيض عليهم مما يغنم [3] . ويكفى هذا الصعلوك شرفا ان تتمنى ملوك المسلمين الانتساب اليه ، نقل عن عبد الملك بن مروان انه قال : « ما كنت احب ان أحدا ، ولدني من العرب الا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ مني أن سمنت وان ترى
بجسمي مَسَّ الحق والحق جاهد

(١) للتوسع والاستقصاء راجع كتاب الدكتور الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي فصل الكرم ص ٣٠٨ ـ ٣٢١)

(٢) انظر اخلاق الصعاليك ومذهبهم وكرمهم في الحياة العربية ص ٢٩٩-٣٠٦ وكذلك كتاب الصعاليك في الشعر الجاهلي ليوسف خليف .

(٣) الاغاني ٣/٧٨ ط الدار

لأني امرؤ عافي انائي شـركة
وانت امرؤ عافي انائك واحد
اقسم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد »[1]

وكانت العرب لا تترك وسيلة لهداية الضيفان اليهـا الا فعلتها ، فهم يوقدون النار ليلا ليهتدي بضوئها من يراها ، وكان بعضهم يوقد النار بحطب طيب الرائحة ليهتدي بهذه الرائحة من فقد نعمة البصر[2] ، وهذا ضرب من الأريحية تنقطع دونه أعناق اللئام . وقد عرف من أجواد العرب خلق كثير حتى ضربت بهم الامثال ، ومازال الناس يتمثلون بكرم حاتم وغيره ، من أجواد العرب ، وكانوا يتمدحون بالكرم ، وهم يرونه فرضا واجبا وقت الضيق والبرد والشدة والقحط ، فكانوا ينحرون ويطعمون حين تهب الصبا ، وقد خصوا الصبا لأنها لا تهب إلا في البرد والجدب ، وعرف اولئك بمطاعيم الريح ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة الذي نسبت اليـه هذه الرياح فأمير الكوفـة - الوليد بن عقبة - يمدحه بقوله :[3]

أرى الجزار يشحذ شفرتيه   إذا هبت ريـاح أبي عقيل

(١) العقد الفريد ١/١٩١ . وانظر ديوان عروة ص ١٣٨ ـ ١٤١ ط الجزائر ١٩٢٦ العاف : طالب المعروف . اناؤك واحد : اي تأكل وحدك . القراح : الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

(٢) بلوغ الارب ١/٧ـ وانظرة الحياة العربية ص ٣١٥ ـ ٣١٦ حيث يرفض الدكتور الحوفي هذا الرأي ويرى ان ايقاد النار بالمندل ضرب من الترف واظهار المقدرة والتباهي بالثراء ورغبة ان يشموا رائحته الطيبة .

(٣) طبقات الشعراء ـ ابن سلام ص ١١٤ والشعر والشعراء ص ١٥٠ ، وكذلك الاغاني ١٤/٩٤ـ٩٥ .

ولم يكن لبيد وحده يفعل ذلك ، بل فعل ذلك أبوه (ربيع المقترين) قبله ، ومثله في هذا كنانة بن عبد ياليل[1] . و كذلك فعلت قريش[2] وفعل قريش هذا له دلالته . فهي في مجتمع حضري تسيطر عليه روح التجارة ، ومع ذلك لم يكن الكرم مقتصرا على البادية أو محدوداً بحدودها وبظروفها ،وأخبار الكرم والكرماء في الجاهلية والاسلام أوسع من ان تحيط بها هذه الالمامة[3] .

وكانت طبيعة الحياة العربية تتطلب القوة والشجاعة والاقدام وركوب المخاطر والتجلد للمكارة والخطوب ، وقد دعاهم الى ذلك طبيعة الحياة المضطربة القائمة على الغزو والغارة والعداء فهم في حرب مضطرمة الأوار لا تكاد تخبو حتى يشب ضرامها ، وما اسرع ماتستعر الحروب لامور ذات خطر او ليست بذات خطر ، ودواعي الحرب كثيرة عندهم فقد يتنافسون على شرف ورياسة ، او يتنازعون على ماء او مرعى ، او تكون طلبا لثأر قديم او غارة او مفاخرة ومنافرة ، كانت تشتد الحرب بسبب من هذه الاسباب او غيرها ، وان احدهم ليهب لنصرة قومه اذا سمع الصارخة ، وهو يعلم السبب اولا يعلمه ، وقد صور هذه الحال خير تصوير قريط بن انيف :[4]

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم
طاروا اليـه زرافات ووحدانا

(١) ذكره الميداني في المثل (اقرى من مطاعيم الريح) مجمع الامثال ١٢٧/٢
(٢) المحبر – محمد بن حبيب ص ٢٤١
(٣) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الدكتور الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي) ص ٣٠٨ – ٣٢١ ط الرابعة .
(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٧/١ – ٢٩ الناجذ : ضرس الحلم ، مثل لاشتداد الشر .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

ويعزز هذه الحال ما روى عن عبدالملك بن مروان ، أنه سأل ابن مستطاع العنبري : « أخبرني عن مالك بن مسمع ، قال : لو غضب مالك لغضب معه مائة الف سيف ، لا يسألونه في أي شيء غضب »[1] لقد كان الغزو ديدنهم والغارة معاشهم ، فكانوا يغيرون على الاعداء وعلى الاباعد ، فان لم يجدوا ذلك لا يترددون في ان يميلوا رؤوس الخيل نحو أقربائهم وذوي الارحام منهم، وقد عبر الشاعر القطامي (عمير بن شييم) عن هذا بقوله :[2]

وكنَّ اذا اغرن على جناب | وأعوزهن نهب حيث كانا
اغرن من الضباب على حلول | وضبة انه من حان حانا[3]
وأحيانا على بكر اخينا | اذا ما لم نجد الا اخانا

ولا بد في هذا المجتمع الحربي من القوة لانها السبيل الوحيد للحياة الكريمة ، وهم يحتقرون الضعف - احتقارهم الجبن - لانه مظهر الذلة والهوان ، وقد ملىء شعرهم بذكر الشجاعة والبطش والقوة ،وا كرم الموت عندهم في ساحات القتال وهم يمقتون الميتة حتف الانف في غير ميادين القتال ، هذا الحطيئة يحتقر هذه الميتة بقوله :[4]

وشر المنايا هالك وسط اهله
كهلك الفتاة ايقظ الحي حاضره

---

(١) العقد الفريد ١/١٠٥
(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١/٨١ . وشرح الحماسة للمرزوقي ١/٣٤٨
(٣) الضباب : تشمل ضبة وضبيب . وحسل وحسيل والحلول . الحلات النازلة حولهم وفيهم .
(٤) ديوان الحطيئة ص ٤٥

وقد جاء أدبهم معبرا بصدق عن حياتهم الحربية، فوصفوا الحرب وهولها وابطالها وصرعاها وادوات القتال فيها ، من قنا وصوارم ودروع وسهام وقسي[1] .

وهذه الحروب المستمرة المهلكة لا بد ان تنكشف عن صرعى من كلا الجانبين المتقاتلين ، ودم القتيل لا يذهب هدرا، بل لا بد من الثأر الذي به وحده تطفأ غلة الموتور ولا يغسل الدم الا الدم ، فأما الدية فكانوا يرونها ذلا ومهانة لا يرضى بها الا الذليل وقد كان من حرصهم على اخذ ثأر القتيل ان توهموا حوله الاساطير، وذلك ما عرف عندهم بالصدى والهامة ، يقول الشاعر :[2]

يا عمرو الاتدع شتمي ومنقصتي
اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقد « بلغ من كلفهم بالثأر انهم كانوا يتجانفون النساء والخمر والطيب لانها ضرب من التنعم والبهجة لا يليق بحزين موتور ، او لانها قد تلهى وتشغل عن الجد في الثأر »[3] ولا شك ان الثأر شر كله . فأكثر الحروب ، وجل ايام العرب ، قامت على الثأر او بسببه وقد تنتهى الحرب ويتبدل الزمان ، ويتغير الناس ، ينسون كل شيء ، الا الثأر فانه يغلي في الصدور (وتبقى حزازات النفوس كما هيا) وان جريرة الثأر لا تقتصر على القاتل نفسه بل تصيب ابناءه ، واخوته ، واسرته ، وكل فرد في قبيلته .

---

(١) راجع الحياة العربية ـ فصل الحرب ـ ص ٢٣٠ـ٢٧٦
(٢) امالي القالي ١/١٢٩
(٣) الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ٢٠٦

واذا كان هذا مذهب العرب في الثأر والغلو بسفك الدماء، فانهم لم يعدموا من كان يدعو الى السلم، ويحث على حقن الدماء وتحمل الديات، كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف حين اصلحا بين عبس وذبيان، وتحملا ديات القتلى[1] وكما صنع زهير بن ابي سلمى حين ندد بالحرب وكرهها الى الناس، وحبب اليهم السلم والمودة والصفح والتسامح وقد خصص جزءا غير يسير من معلقته لذلك، وكما فعلت بهيسة بنت أوس الطائي حينما تزوجها الحارث ابن عوف، ورفضت ان يقربها حتى يصلح بين عبس وذبيان، واحتمل الديات مع هرم بن سنان[2].

وكان العرب يحرصون على المثل العالية والخصال النبيلة، ويفخرون بأدائها والوفاء بحقها، ومن تلك الخصال حفظ الجوار والوفاء بالعهد فهم يحرصون على جارهم حرصهم على شرفهم، سئل اعرابي عن مبلغ حفاظ قومه فقال: «يدفع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه»[3].

ويتمدح قيس بن عاصم بقومه فيقول :[4]

لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطنُ

وقد فطنوا لخصال الخير فذكروها في فخرها، معتزين بنسبتها اليهم، كالنجدة وحماية الضعيف، والعفو عند المقدرة والحلم والتسامح،

---

(١) الشعر والشعراء ص ٦١ ط أوربا

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٤٦٣

(٣) العقد الفريد ١/١٠٥

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٤/١٥٨٤ ط هارون واحمد امين ١٣٧٢/١٩٥٣

وكانوا مع ذلك يأبون الضيم ويأنفون من الذل والهوان ، ولو ركبوا في سبيل ذلك المخاطر . وليس ببعيد ما ذكر عن عمرو بن كلثوم أنه أطاح برأس الملك انفة من أن تذل امه[1] . وقد علمتهم بيئتهم القاسية الصبر والجلد واحتمال المصائب ومضاء العزائم .

تلك الخصال كانت اذا لم يشتطوا فيها ، خصال خير وشرف ، على أن هناك آفات ينخر منها جسم المجتمع العربي ، ومنها الخمر والميسر .

كانت الخمر عندهم من أهم متع الحياة ، وقل أن تجد شاعراً في الجاهلية لايذكر الخمر فهي مظهر من مظاهر الفتوة والشباب والقوة ، يقول حسان بن ثابت :[2]

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

كانوا يشربون الخمر لأنها تهز الأريحية ، وتبعث على الكرم ، يقول عمرو بن كلثوم :[3]

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت ... عليه لماله فيها مهينا

وقد عنى العرب بالخمر ومجالسها ، فوصفوها مدققين بوصفها ، وذكر أنواعها وكؤوسها وندمانها ، وكانت مجالس الخمر تستكمل بالغناء ، حيث تغنى القيان أو ترقص في هذه المجالس ، وذكروا أن عبدالله ابن جدعان كانت له قينتان عرفتا بالجرادتين ، كانتا تغنيان في مجاس

---

(١) الاغاني ١١/٥٢ ط الدار ـ والشعر والشعراء ص ١١٨ـ١١٩

(٢) ديوان حسان ص ١

(٣) شرح المعلقات للتبريزي ص ١٠٩ ط لايل، اللحز : البخيل أو السيء الخلق. امرت : اديرت .

شربه وقد وهبها لأمية بن أبي الصلت حيث كان قد مدحه[1]. وكان من العرب من يدمن شربها، فتعبث بعقله وسلوكه، حتى تضيق به قبيلته فتخلعه متبرئة من جرائره، مثل ما برئت كنانة من البرّاض ابن قيس، إذ كان سكيراً فاسقاً[2]. وكذلك كان طرفة حيث يشير الى ان قبيلته قد تحامته، وافردته كما يفرد البعير الاجرب، لاسرافه في الخمر والمجون:[3]

وما زال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى ان تحامتني العشيرة كلها
وافردت افـراد البعير المعبد

على ان من عقلاء العرب في الجاهلية من اعرض عن الخمر وترفع عن شربها، لما تفعله في الانسان من ذهاب العقل والحلم والوقار، وما تجلبه من مهانة وطيش وسفه، ومن اولئك الذين هجروا الخمـر العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم، وكثير من الصحابة كعثمان ابن عفان، وعبدالرحمن بن عوف وأبي بكر، وعثمان بن مظعون، وغيرهم، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة انها قالت: «ما شرب ابو بكر رحمة الله عليه خمراً في جاهلية ولا اسلام»[4]، وقد قيل للعباس ابن مرداس في جاهليته: «لمَ لا تشرب الخمر فانها تزيد في جرأتك،

---

(١) الاغاني ٣٢٧/٨ ط الدار
(٢) الاغاني ٧٥/١٩ ط ساسي
(٣) شرح المعلقات للتبريزي ص ٤٢
(٤) كتاب الاشربة ـ ابن قتيبة ص ٢٤ ط دمشق ١٣٦٦/١٩٤٧ تحقيق محمد كرد علي.

فقال : ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي ، وأصبح سيد قومي وأمسى سفيههم »[1] ، وقد ذكر ابو الفرج :[2] انه ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما بها من الدنس . اما نساؤهم ، فلم يعرف ان امرأة منهم شربت الخمر في جاهلية ولا اسلام[3] .

وإذا ذكرت الخمر فيذكر معها القمار والميسر ، وقد تمدحوا بالميسر لأنه وسيلة من وسائل الانفاق والكرم واطعام الفقراء ، وأكثر ما يفخرون به عند البرد والقحط . فقد كانوا يعطون الفقراء وذوي الحاجة نصيبهم من الجزور حين يربحون ، وكانوا يرون ان من كمال الفتوة والكرم ان يقامر المرء ، ويذمون من لايدخل معهم في الميسر ويسمونه (البرَم) يريدون به البخيل عديم المروءة . قال لبيد يمدح قومه بلعب القمار :[4]

وبيض على النيران في كل شتوةٍ
سراة العشاء يزجرون المسابلا

كان فتيان الجاهلية يفخرون بانهم يتعاطون الخمر والميسر ، ويتمتعون بالنساء ، وتكاد تكون هذه الامور الثلاثة من مظاهر الفتوة عند بعض شبانهم ، وقد جمعها المنخل اليشكري في قصيدته الرائية التي أولها :[5]

إن كنتِ عاذلتي فسيري   نحو العراق ولا تحوري

(١) كتاب الاشربة ص ٢٥
(٢) الاغاني ٨/٣٣٢
(٣) كتاب الاشربة ص ٣٠
(٤) الديوان ص ٢٤٩ ـ سراة العشاء : وقت الضيف . المسابل : القداح .
(٥) شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٥٢٦ـ٥٢٩ ط هارون

وتتمثل خلال الفتى من هؤلاء في شخص طرفة الذي قرن بين الخمر والفروسية والتمتع بالنساء، ولولا هذه الخصال الثلاث لما حفل متى قام عنه العائدون :[1]

فلولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودي[2]

فمنهن سبقُ العاذلات بشربة
كميت متى ما تُعل بالماء تزبد

وكرى اذا نادى المضافُ محنباً
كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنةٍ تحت الطراف المعمَّد

لقد كانت متع الجاهلية متلازمة يكمل بعضها بعضاً، وقد كان من أسباب نكوص الاعشى عن الاسلام، أن أبا سفيان تصدى له وهو في طريقه الى المدينة ليسلم - وقد أعد قصيدة في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال له : ان محمداً يحرم الخمر والزنا والقمار فصرفه عن الاسلام[3].

لقد مر بنا أن المرأة كانت من متع الشباب في الجاهلية، والمرأة هنا هي القينة والجارية، اما الحرة فقد كان لها منزلة رفيعة

---

(١) شرح القصائد العشر - التبريزي ص ٤٣ - ط لايل

(٢) العود : من يحضره عند المرض . المضاف : الذي نزلت به الهموم . المحنب : فرس بعيد ما بين الرجلين . السيد : الذئب . المتورد : الذي ورد الماء . البهكنة : المرأة التامة الخلق .

(٣) السيرة النبوية ١/٣٨٦ وما بعدها ، الاغاني ٩/١٢٦ ط الدار

في نفوسهم ، فقد كانت تشارك الرجل في كثير من الاعمال تربي الاولاد ، وتخرج الى القتال تضمد الجرحى وتغزل وتنسج ، ومنهن من تحترف تجميل النساء او إرضاع الاطفال وتوليد النساء او تقويم الرماح، ومنهن من تنسج الثياب وتصلح الخيام وتطهي الطعام وتعمل في الحقل كما يعمل الرجل ، ومنهن من ترعى الماشية وتطلي الابل الجرب وتجنى الكمأة وتحلب اللبن ، الى غير ذلك من الاعمال والصناعات[1] ومنهن الشريفات الموسرات اللواتي تخدمهن الجواري فتكفيهن هذه الاعمال ، وكان الكثير منهن سافرات يقابلن الضيفان ويجلسن اليهم في حشمة ووقار ، وكان لبعض النساء من بنات الاشراف حق في اختيار ازواجهن، على نحو ما عرف عن هند بنت عتبة حين استشيرت في خاطبها ابي سفيان[2] . واذا حدثت الحرب فانها تخرج - في بعض الاحايين - الى ميادين القتال، لتثير همم الرجال، وتحرضهم على الاستماتة وتنشدهم الاناشيد الحماسية وتهيء لهم النبال وتضمد الجرحى وتسقي الماء . وكانت سببا في اثارة كثير من المعارك، فتدفع الرجل الى طلب الثأر وتعير القاعدين عن ذلك ، قالت ام عمرو بنت وقدان تحرض قومها على الثأر لاخيها :[3]

فان أنتم لم تطلبوا بأخيكم

فذروا السلاح ووحشوا بالابرق

---

(١) انظر (صناعات المرأة) في الحياة العربية للدكتور الحوفي ص ٣١٦-٣٢٩ الطبعة الاولى .

(٢) امالي القالي ١ / ١٩٨

(٣) شرح الحماسة للمرزوقي ١٥٤٦/٣ وحشوا : اطلبوا صيد الوحش . الابرق مكان فيه حجارة سود وبيض . المجاسد : الثياب المصبوغة بالجساد وهو الزعفران نقب النساء : ازرهن .

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا

نقب النساء، فبئس رهط المرهق

وقد نزلت المرأة من نفس العربي منزلة رفيعة، فهي الام والاخت والبنت والحبيبة، وقد عنى الشعراء بها عناية كبيرة فهي مصدر الهامهم، بذكرها تنشط القرائح وتهيج العواطف وتهتز النفوس، وهم يفتتحون القصائد بمخاطبتها ومناجاتها، ويقفون على ديارها وقفة شوق وذكرى، ويبثونها اشواقهم واحاسيسهم، ويذكر الشعراء المرأة على انها الحريصة على البيت الحافظة للمال التي تلوم على الاسراف والتبذير، يقول حاتم:[1]

أماوي ان المال غاد ورائح

ويبقى من المال الاحاديث والذكر

أماوي اني لا اقول لسائل

اذا جاء يوماً حل في مالنا نذر

ومهما يكن من شيء فان مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي - وفي غير الجاهلي - دون مكانة الرجل بكثير، والعرب تحب الذكور لانهم جنود القبيلة ورجالها الحماة، اما المرأة فلا تغنى في الحرب شيئاً، بل تكون عبئاً على القبيلة لانها مقصد الاعداء يريدونها سبية، وسبى المرأة عندهم عار لا يسكت عنه، ولا يقعد دونه، الا الوغد الذليل، وليس ادل على بغضهم للاناث من قول الله تعالى يصف حالهم: «واذا بُشِّر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم

---

(١) ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ ط لندن ١٨٧٢

من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الاساء ما يحكمون »[1] وقد كان منهم من يتخلص من الاناث بوأدهن – كما تشير الاية الكريمة – خوف الفقر أو خوف العار ، وقد نهى الاسلام عن هذه العادة البغيضة وندد بفاعليها فقال تعالى: « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم وان قتلهم كان خطأ كبيرا »[2] على ان حوادث الوأد كانت قليلة ومحصورة في قبائل من الاعراب الجفاة، من مثل اسد وتميم ولم تكن عامة في القبائل[3] وكان من العرب من ينكر هذه الفعلة، ويبذل المال ليفتدي الموؤدات، كما كان يفعل صعصعة بن ناجية، قال الفرزدق يفتخر بفعال جده:[4]

ومنـا الذي منع الوائـدا ت وأحيـا الوئيد فلم توأد

تلك حال المرأة الحرة، اما الامة فهي دون الحرة منزلة، واكثر الاماء[5] من السبي او الرقيق، ومنهن القيان والجواري اللواتي يكثرن في حوانيت الخمارين، وكن متعة السكارى والفساق من اصحاب اللهو والمجون.

وقد جاء الاسلام فأكرم المرأة – امة وحرة – فدعا الى العناية بها والعطف عليها فحرم ان تعضل أو تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها،

---

(١) سورة النحل ٥٨–٥٩

(٢) الاسراء ٣١

(٣) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٩٢–٣٠٤

(٤) الكامل – المبرد ٢٧٢ ط لايبزك ١٨٦٤، وديوان الفرزدق ٢٠٣/١ ط الصاوي ١٣٥٤/١٩٣٦

(٥) يفرق الدكتور الحوفي بين السبايا والاماء (فالسبايا عربيات يؤخذن قسرا في حرب أو غارة ويمتهن الدم، اما الاماء فغير عربيات يشترين بالمال للخدمة والتسري) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٨٩ ط اولى.

كما حرّم أنواعا شائنة من الزواج ، كانت عند الجاهليين، منها نكاح المقت[1] ونكاح الشغار[2] والجمع بين الاختين وان كانوا يكرهونه وينهى بعضهم عنه[3] كما نهى الاسلام عنه[4] .

وعلى كل حال فان مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي - على ما فيها من الهنات والمساوى. - مكانة كريمة ، والمرأة نفسها عرفت بالعفة والادب والحرص على شرفها و كرامتها، وهذا أمر طبيعي في مجتمع يتبوأ فيه العرض والشرف المكانة العليا ، ويحرص العربي فيه على عرضه حرصه على الحياة .

(٣)

أما مكاسبهم وحياتهم المعيشية ، فلم يكن حظ العرب من الرزق يختلف عن حظوظ الأمم الاخرى من اختلافهم في الموارد و المكاسب، فسكان المدن العامرة في اليمن ومكة ويثرب والحيرة غير سكان البادية الموغلين في الصحراء ، وسكان المدن أنفسهم يختلفون في مستوياتهم المعيشية، فمنهم التاجر الثري، ومنهم العبد الرقيق ، ومنهم المسكين الضعيف، وآخرون بين هؤلاء وهؤلاء ، وفي البادية أغنياء موسرون ، وفقراء مرملون ، و كذلك حياة الناس منذ كانوا حتى

---

(١) وهو ان يخلف على المرأة الابن الاكبر لزوجها - الاغاني ٩/١ . وكان الجاهليون انفسهم ينكرون هذا الضرب من النكاح، وكانوا يسمون الولد منه (مقتى) او (مقيت) وقد حرموا ضروبا اخرى من الزواج على انفسهم . وقد اقر الاسلام هذا التحريم المحبر - محمد بن حبيب ص ٣٢٥

(٢) ان ينكح الرجل وليته رجلا ، وينكح هو ولية ذلك الرجل بلا مهر . لسان العرب وتاج العروس . ونهاية الارب ٢٤٥/٢

(٣) الملل والنحل - الشهرستاني ٣١٧/٢

(٤) سورة النساء ٢٣

اليوم . والذي يلاحظ ان الاحوال المعيشية في البادية قبيل الاسلام وابان ظهوره ، كانت تنحدر من الرخاء الى الشدة والعسر ، وآية ذلك ان الحاجة والعوز وسوء الحال ، دفعت بعض الاعراب ان يتظاهروا بالدخول في الاسلام لارغبة في الايمان بل طمعا في العطاء ، كما توضح الرواية التي تقول: « ان نفرا من بني أسد ثم من بني الخلاف ابن الحارث ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المدينة في سنة جدبة ، فاظهروا شهادة ان لا اله الا الله ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وأفسدوا طريق المدينة بالعذرات وأغلوا الاسعار ، وكانوا يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : اتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالاثقال والعيال - يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ... ويريدون الصدقة ويقولون : اعطنا ، فأنزل الله سبحانه فيهم : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ... الآيات »[1] وقد بين القرآن الكريم التباين في الحياة المعيشية حين ندد بالذين يتعاطون الربا ، والذين يخسرون الكيل والميزان والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، وبخاصة في مجتمع مكة .

وقد قسم بعض المؤرخين المسلمين العرب الى مراتب : فهم ملوك وغير ملوك ، وهؤلاء اهل مدر واهل وبر واهل المدر قسمان : زراع وتجار . اما الصناع ، فكانوا قلة ليس لها اثر واضح ، قال : « واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : اهل وبر وأهل مدر ،

(١) نهاية الارب ٨/٣١ وسورة الحجرات ١٤

فاما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى و كانوا يحاولون المعيشة من الزرع و النخل و الماشية و الضرب في الارض للتجارة، واما أهل الوبر ، فهم قطان الصحارى ، و كانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين منابت الكلأ ومرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعى ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حل وترحال ..... »[1]

ان الحياة في الجزيرة العربية موقوفة على الامطار وما تدره عليهم السحب في مواسم معينة ، وهي قليلة على أي حال ، ولذلك لم يتيسر للبادية أن تقوم فيها زراعة منتظمة بل نشطت الزراعة في المناطق التي تتوفر فيها المياه من العيون والآبار و الامطار ، فعرفت الزراعة في الجنوب والشرق ومدن وقرى الحجاز ، مثل الطائف ويثرب وخيبر ووادي القرى . وقد صور القرآن الكريم حياة ثمود الزراعية المستقرة في غابر الزمان ، قال تعالى : « أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين »[2] كما وصف المؤرخون المدن والقرى الزراعية التي كانت قبيل الاسلام ، منها القرى المشهورة التي مرّ ذكرها ، ومنها الواحات والقرى المنبثة في أنحاء من الجزيرة ، وفي كتاب (أسماء جبال تهامة وسكانها) وصف لكثير من هذه القرى ، قال المؤلف يصف قرية الصفراء : « قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون

---

(١) مختصر الدول ـ ابن العبري ص ١٥٨ـ١٥٩ وكذلك طبقات الامم ـ صاعد الاندلسي ٦٥ـ٦٦

(٢) الشعراء الآيات ١٤٦ـ١٤٩

كلها ، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة وماؤها يجري الى ينبع »[١]. وقال في وصف قرية السوارقية انها قرية « غناء كثيرة الاهل » وذكر حاصلات بني سليم : « فيها مزارع ونخيل كثيرة وفواكه ، من موز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ » ثم بيّن ماعندهم من ابل وخيل وشاء كثير[٢]، وكذلك الامر في قرى كثيرة كالفُرُع[٣] وخيف سلّام[٤] وغير ذلك ، وعلى كل حال فان الزراعة حرفة الحضر في المدن والقرى وما حولها . أما أبناء البادية فكانوا ينظرون الى الزراعة على انها عمل أهل الذلة والهوان ، فهم ينالون أرزاقهم بأطراف القنا والسيوف ، يسعى للحرب منهم شباب مرد على خيل جرد ، وقد صور الاعشى هذه النزعة حين عيّر أياداً بالزراعة فقال :[٥]

لسنا كمن جعلت أياد دارها تكريت تنظر حبها أن يحصدا
قوما يعالج قملا أبناؤهم وسلاسلا أجدا وبابا موصدا

ونظرتهم المترفعة هذه عن العمل الزراعي ، جعلتهم قوما متكلين على الغيث ، متتبعين لمواقعه ، فمتى اهتزت بقاع الارض وربت رعوا أنعامهم في زرعها ، وشربوا من ريها ، حتى إذا انسوا مراعي آخر تتبعوها وسعوا اليها ، فهي قوام حياتهم ـ بعد الغزو ـ وحياة أنعامهم وسواء عليهم أكانت تلك المراعى فى أرضهم وحماهم ، أم كانت

---

(١) اسماء جبال تهامة وسكانها ـ عرام بن الاصبغ السلمي ص ٨ ـ تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧٣هـ .
(٢) اسماء جبال تهامة ص ٦٥
(٣) المصدر السابق ص ١٩
(٤) نفس المصدر ص ٣٥
(٥) ديوان الأعشى ص ٢٢١ ط محمد حسين . اجدا : موثقة .

في أرض غيرهم ، ومثلهم في ذلك قول القائل[1] .

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ولذلك نجمت الحروب ، و كثرت المعارك ، بسبب المراعي والمياه .

وقبل ان اذكر التجارة عمل العرب الكبير ، أود ان انتهى من ذكر الصناعة ، لانها ضيقة النطاق ، ومحصورة في الحواضر والمدن ، وقليلا في البادية . ان البادية كانت تنظر الى الصناعة - نظرتها الى الزراعة - نظرة زراية واحتقار ، ان نفوسهم لتأبى الامتهان بها ، وكما عير الاعشى ايادا بزراعتها ، فقد عيّر عمرو بن كلثوم النعمان بن المنذر - وهو على ملك الحيرة - بأن امه من اسرة تمتهن الصياغة ، قال عمرو :[2]

لحا الله ادنانا الى اللؤم زلفة والأمنا خالا واعجزنا ابا

واجدرنا ان ينفخ الكير خاله يصوغ القروط والشنوف بيثربا

وقد كان جرير - فيما بعد - يلح على الفرزدق بتذكيره ان احد أجداده كان قينا[3] . هذه عقلية البادية اما الحاضرة فنظرتها الى الصناعة أهون من ذلك وان كان الاشراف يترفعون في جاهليتهم عن الصناعة . و كان اليمنيون اعرق في الصناعة واكثر خبرة ودراية من المضريين ، فأهل اليمن صناع مهرة ، ومن الصناعات التي اجادها اليمنيون صنع الاسلحة من سيوف ورماح ودروع ، وقد شهرت

---

(١) الروض الانف ١٧٤/٢ ، والشاعر هو معاوية بن مالك معود الحكماء عم لبيد .

(٢) نهاية الارب ٨٢/١

(٣) النقائض ص ٤١٣ ط ليدن

بنسبتها الى صانعيهـا ، او الى أماكن صنعها ، فقالوا : السيوف اليمانية ، والرماح الردينية ، والقنا السمهرية .

وفي الشمال كانت بعض الصناعات ، كنسج الثياب ، وعمل الزرود والسروج والصياغة ، وخاصة في مكة والمدينة .

اما البناء فما كان متقدما بشكل ملحوظ ، وكانوا يستعينون بعمال من الفرس والروم في تشييد ابنيتهم المهمة ، كتجديد الكعبة او توسيعها ، ويقال ان معاوية بن ابي سفيان لما اراد ان يبني دوره التي يقال لها (الرقط) في مكة ، حمل لها بنائين من فرس العـراق فكانوا يبنونها بالجص والاجر[1] ، وكذلك بنيت القصور في الحيرة كالخورنق والسدير .

اما التجارة فكانت المهنة المربحة التي عرفها العرب وبرعوا فيها ، وهي مهنة الحضر المتعلمين ، ولم تكن ظروف البادية ولا طباع اهلها تعين على ان يبرعوا فيها ، ولكن بعضهم كان يعمل دليلا يرشد القافلة ان تضل في مجاهـل الصحراء[2] ، او خفيرا حاميا يمنعها من النهب والغارة[3] . وقد نشطت التجارة اول الامر في اليمن فامتدت تجارتهم بين الهند شرقا الى افريقية غربا ، والى بلاد الشام والـروم شمالا ، حتى اذا مـا هدت السيول سد مأرب وساءت حركـة السوق واضطربت الاحوال السياسية ، كسدت التجارة وانتقل النشاط التجاري الى ايدى القرشيين في مكـة ، فكانت قوافلهم تجوب

(١) الاغاني ٣/٢٨١ ط الدار
(٢) المحبر ص ١٨٩ . والمغازي ـ الواقدي ص ٨٦ ط كلكتا .
(٣) المحبر ص ٢٦٤ ورسائل الجاحظ ص ٦٥ ط بولاق

الصحراء شمالا وجنوبا ، حيث رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن شتاء والى الشام صيفا ، والى ذلك تشير الآية الكريمة : « لأيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف »[1]. وكذلك تسير تجارتهم الى الحبشة غربا والى الحيرة وبلاد فارس شرقا ، وان فريقا من تجار قريش بلغوا بتجارتهم اقاصي بلاد العرب والعجم ، فهاشم متجره الشام ، وعبد شمس متجره الحبشة ، وعبد المطلب الى اليمن ، ونوفل نحو العراق[2] .

ولا شك ان هذه الرحلات كانت تحيط بها المصاعب والمخاطر ، ولا تنتهي الى غاياتها الا بشق الأنفس ، وذلك لبعد الشقة ، ووعورة الطريق ومجاهل الصحراء ، وغارات اللصوص من ذؤبان العرب وصعاليكها ، وبخاصة من ذؤبان فهم وهذيل .

وقد كانت القوافل من الكثرة والضخامة بمكان حيث بلغت احداها خمسمائة والف بعير[3] كما بلغت احدى قوافل قريش الفين وخمسمائة بعير ومائة رجل - على ما ذكر الطبري[4] - ولاهمية هذه القوافل ، وكثرة حمولتها ودوابها ، فقد كانوا يؤمنون الطريق ، فيرسلون الرواد والمستطلعين قبل الرحيل ، حتى يتعرفوا اخبار الطريق ، كما حدث في غزوة بدر ، فقد علم اولئك الرواد أن المسلمين يتربصون بقافلة قريش فأسرعوا الى مكة واستنفروا أهلها[5] .

وكانت هذه القوافل تحمل الطيب والبخور ، واللبان ، والجلود

---

(١) قريش ١-٢
(٢) المحبر ١٦٢ ، والسيرة ٤٧/١
(٣) المنازي ص ٢٠
(٤) الطبري ٢٦١/٢ ط الحسينية
(٥) السيرة ٢٦٠/٢

والثياب العدنية، وتوابل الهند، كل هذه البضائع من اليمن والهند وافريقية الشرقية، وتأتي من الصين الجلود والمعادن والحرير[1]، ومن الحبشة الرقيق والصمغ والعاج، ومن العراق وفارس التمر والشعير[2]. ويحملون من الطائف الزبيب، ومن مناجم بني سُليم الذهب، يحملون كل ذلك الى بلاد الشام، ويعودون حاملين الاسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية وغيرها[3].

وكانت قوافل قريش تحمل الفضة (او القزدير) حيث استولى المسلمون في غزوة بدر الموعد (سنة اربع للهجرة) على قافلة لقريش فيها اموال ابي سفيان بن حرب، ففخر بذلك حسان بن ثابت وعير قريشا الهزيمة، فلما كان يوم احـد، رد ابو سفيان بن الحـارث على حسان بقصيدة منها هذا البيت :

حسبتم جلاد القوم عند قبابهم
كمأخذكم بالعين ارطال آنك

فقال ابو سفيان بن حرب يعاتب ابا سفيان بن الحارث : « يا ابن اخي لم جعلتها آنك، ان كانت لفضة بيضاء جيدة »[4] من كل ذلك نعرف ان قوافل قريش كانت تحمل الغنى والثراء والمال النفيس.

وقد استطاعت قريش[5] ان تجعل من مكة مركزا تجاريا مهما،

---

(١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ص ١٠٦
(٢) الكامل ـ ابن الاثير ٢/٢٢٨ ط ليدن
(٣) دائرة المعارف الاسلامية (مكة)
(٤) طبقات الشعراء ص ٢٠٨ ـ الانك : القزدير
(٥) لقد برعت قريش في التجارة وحذقت شئونها فسميت بهذا الاسم من تقرش المال قيل : (سميت بذلك لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا اهل ضرع وزرع، من قولهم فلان يتقرش المال، اي يجمعه (لسان العرب) (قرش) .

تكدست فيه الاموال و كثرت فيه الثروة ، وذلك لما كانت تتمتع به من مكانة دينية مقدسة ، لانها صاحبة البيت وسادنة الكعبة ، وأرضها حرام وحرمها آمن، لايحل فيه قتال ولا غزو[1]. وقد عقدت مع كل ذلك محالفات مع القبائل المجاورة ، ولم يكن بينها وبين غيرها ثارات وأحقاد، وما كانت تسمح لشعرائها أن يتعرضوا بالهجاء لغيرهم، بل هي تضرب على أيدي شعرائها الهجائين من مثل عبدالله بن الزبعرى، وتنكر أن يهجو بعضها بعضا[2]، ولم تعرف مكة بكثرة الخصومات والحروب ، فابن سلام يفسر قلة شعر المكيين في أنهم: (لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا)[3] ، اللهم إلا أن تدفع الى القتال دفعا كما حصل في حروب الفجار ، وقد استطاعت قريش أن تنشر الأمن والسلام في أرضها ، بحلف عقدته وأسمته (حلف الفضول) ، كل ذلك هيأ لها الجو الطيب كي تنشط تجارتها فترتاد الصحاري والبوادي في أمن وطمأنينة ، وهذا من فضل الله على أهل بيته ، فقد قال سبحانه : « فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف »[4] . قال الزمخشري في تفسيره لسورة قريش : « وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم » قال تعالى : « أوَلم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٨ ط اوربا
(٢) السيرة ٢/٤١٨
(٣) طبقات الشعراء ص ٢١٧
(٤) قريش ٣-٤

من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »[1]

وكان للأسواق الاثر الكبير في رواج التجارة وتبادل السلع ، وأهم الاسواق كانت تقام على مقربة من مكة ، كعكاظ ومجنة وذى المجـاز ، والعرب تسعى الى هذه الاسواق من كل حدب وصوب ، ليشهدوا منافـع لهم ، ويتناشدوا الاشـعار ، ويذيعـوا الخطب ، ويتحاكموا في خصوماتهم ، ويتفادوا الاسرى ، ويعقدوا الصلح ، أو يتفاخروا بالاحساب والمحامد والأمجاد .

ولم تكن هذه الأسواق محصورة في منطقة واحدة ، بل كانت تقام في قلب الجزيرة حينا وفي أطرافها في حين آخر ، وفي أوقات معينة معلومة ، ومن أسواقهم المهمة : سوق دومة الجندل في شمـالي نجد ، وسوق خيبر ، وسوق الحيرة ، وسوق الحجر باليمامة ، وسوق صحار ودبا بعُمان ، وسوق المشقر بهجر ، وسوق الشحر ، وسوق حضرموت ، وسوق صنعاء ، وعدن ، ونجران ، وغير ذلك من الاسواق الكثيرة[2] . وقد كان لهذه الاسواق الاثر الكبير في تنشيط حركة التجارة وازدهارها ، كما كان لها الفضـل في توافق العادات وحل المشاكل وامتزاج ثقافات امم مختلفة ، وقد ساعد كل ذلك على الرقى العقلي والحضاري .

(٤)

رأينا فيـما مرّ بأن الحواضـر كانت تعنى بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما البوادي فما كان بمقدورها ذلك بل انصرفوا لاكتساب

(١) تفسير الكشاف ٢/٤٨٧ ط بولاق حجر ١٢٨١هـ وسورة القصص ٥٧
(٢) الازمنة والأمكنة ـ الباب الاربعون ص ١٦١ ـ ١٧٠ وانظر المحبر ص ٢٦٣

العيش من غير هذه الموارد - مرت جملة منها في سياق البحث - ونذكر هنا عنايتهم بالانعام مصدر الكسب والحياة ، وأهم حيوان البادية وأكثره نفعا وأشده احتمالا لقسوة الصحراء ، الابل . كانت الابل عماد الحياة عند العرب ، يأكلون من لحومها ، ويشربون من ألبانها ، ويكتسون من أوبارها ، ويصنعون بيوتهم منها ، وعليها يحملون أثقالهم ويرحلون ، قال الله سبحانه في ذكر الانعام وما جعل فيها من منافع لعباده : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم »[1] وقال سبحانه : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين »[2] . وقد أفاد العربي من الابل كل فائدة فلم يترك منها شيئاً إلا وجعل لنفسه فيه النفع فقد صنع من جلدها الأخفاف والقِرَب والسيور والأنساع ، واتخذ من عظامها ألواحاً يكتب عليها ومن بعرها وقوداً يصطلي بناره وينضج به طعامه ، وإذا اشتد المحل ونزل الجدب فكان يصنع من وبرها ودمها بعض الأطعمة مثل (العلهز)[3] . والابل عند العرب خير المال ، بها يقومون البضائع ويثمنونها ، وبها يتقايضون ويفتدون الاسرى ويدون القتلى ويدفعون المهور للزواج . ويدفعونها عطايا حين تهتز أريحيتهم . وكما أفاد العرب من الابل هذه الفوائد الكثيرة

---

(١) سورة النحل ٥ـ٧
(٢) سورة النحل ٨٠
(٣) كتاب الاشربة ـ ابن قتيبة ص ٣٢

فكذلك عنوا بها عناية فائقة ، كانوا يطلبون لها أجود المراعي ، ويتخيرون مواطن الدفء لتوليدها ، واهتموا بأسمائها وصفاتها وحركاتها ، فوضعوا لكل عضو من أعضائها اسما بل اسماء ، وكثر ذكرها في أساليبهم ، ودارت حولها تشبيهاتهم واستعاراتهم وضربوا بها الأمثال ، ونظموا فيها القصائد ، وخاطبوها وناجوها وبثوها اشجانهم وعواطفهم كما يبث الخل الحبيب .

كذلك عنوا بالخيل ، لانها من مظاهر العز والمنعة ، فهي عدتهم عند الغارة ، ومكسبهم في الغزو والحرب ، وكانوا يرسلونها على الطريدة وفي السباق ، وقد اهتموا بانسابها وانسالها وسموها بأسماء اشتقوها من صفاتها او الوانها ومن شياتها ، مثل النعامة والحرون ، وقرزل ، والجون ، وداحس ، والغبراء ، وغير ذلك . وكانوا يقربونها الى مساكنهم ويبنون لها الحظائر ويفضلونها في الطعام . وان احدهم ليجيع عياله ويؤثر فرسه بالطعام ، قال احدهم في فرسه (سكاب) :[1]

ابيت اللعن ان سكاب علق   نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا   يجاع لها العيال ولا تجاع

وللعرب مكسب اخر من طيب الرزق هو الصيد ، فهم يدربون الكلاب خاصة على اصطياد الفريسة ومطاردتها ، ويتقنصون الحمر الوحشية والبقر والوعول والماعز الجبلي والظباء ووحوش الصحراء الاخرى .

على ان الصيد كان مكسب الفقراء والضعفاء ، اما الفرسان .

---

(١) الصحاح (سكب) ١٤٨/١ ، بلوغ الارب ٨١/٢ .

وذوو الشرف ، فما كانوا يرون الكسب الا في الغزو والغارة ، الذي هو دأب ذوي البطولة والبسالة والشجاعة. ولذلك يهجو عمرو بن معد يكرب بني زياد ،لانهم اهل قنص وصيد ، وليسوا اهلاللحرب والقتال :[1]

أبني زياد أنتم في قومكم
ذنب ونحن فروع اصل طيب
نصل الخميس الى الخميس وانتم
بالقهر بين مربق ومكلب
حيد عن المعروف سعى أبيهم
طلب الوعول بوفضة وبأكلب

تلك أهم الموارد والمكاسب التي كان عرب البادية يتعيشون بها، وهم لا شك متفاوتو الرزق، منهم من يملك مئات من الابل والانعام، ومنهم المعدم الذي لا يكاد يجد قوت يومه وبخاصة اذا قل الغيث وامحلت الارض واجدبت الديار ، على انهم كانوا يتقوتون بالقليل من الزاد والبسيط من الطعام فغذاؤهم الشعير بعامة ، وقد يضاف اليه التمر واللبن ، وقد يكون جل هم الرجل منهم ان يقيم اوده بالاسودين الماء والتمر :[2] .

الاسودان أبرا عظامي   الماء والتمر دوا سقامي

ومن البدهي ان هذه الحياة القاسية من الشظف والحرمان ، قد

---

(١) الحيوان ٢/٣٠٩ ـ ٣١٠ الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالربقة وهي العروة في الحبل . المكلب : الصائد بالكلاب . الوفضه : جعبة للسهام من ادم

(٢) المستطرف ـ الأبشيهي ١/١٤١

اكسبت العربي الصبر وقوة الاحتمال والزهد، وقد اعتاد هذه الحياة الخشنة واصبح لايرضى بها بديلا، حتى انه حين جاء الاسلام وكثرت الفتوح، واستوطن بعض الاعراب في المدن، وتحسنت احوالهم المعيشية، نجدهم يسأمون حياة الحضارة، ويملونها، ويشتاق بعضهم حياة الجوع والقسوة والحرمان في الصحراء، قال قائلهم[1]

اقول بالمصر لما سائني شبعي ألا سبيل الى ارض بها جوع
ألا سبيل الى ارض بها غرث جوع يصدع منه الرأس برقوع

وقد ظلوا أبدا يحنون الى البادية، يحنون الى أهلها وهوائها ومياهها ورمالها وانعامها، وبهم عيمة الى البان ابلها[2]. يروى ان النابغة الجعدي دخل يوما على الخليفة عثمان بن عفان، فقال: «استودعك الله يا أمير المؤمنين، قال: واين تريد يا أبا ليلى، قال: الحق بابلي فأشرب من البانها، فاني منكر لنفسي، فقال عثمان: أتعربا بعد الهجرة يا أبا ليلى، اما علمت ان ذلك مكروه، قال: ما علمته وما كنت لاخرج حتى أعلمك»[3] نعم كان النابغة منكرا لنفسه يدفعه الحنين الى البادية حنين الغريب الى وطنه، وهو مايعرف اليوم بداء الوطن.

(١) عيون الاخبار ـ ابن قتيبة ٣/٢٢٢ ط دار الكتب ١٣٤٨/١٩٣٠ بالاصل (غرس) جوع برقوع: شديد
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٤٩١ ط أوربا
(٣) طبقات الشعراء ص ١٠٦ ـ ١٠٧ والاغاني ٥/١٠ ط الدار

الفصل الرابع

الحيـاة العقليـة

(١)

ان الصورة التي استقرت في كثير من الاذهان عن العصر الجاهلي، فيها كثير من الضلال و الخطأ و الاجحاف بحق ذلك العصر ، فالذي يقرأ ما كتب ويكتب عن الجاهلية ، يخيل اليه ان الامـة العربية كانت امة جهل وعمى ، قد عزلت عن العالم وعاشت غارقة في بحر من البداوة والفوضى والتوحش وليس لها ماض مجيد يشدها اليه ، ولا حاضر قويم يحيى فيها معاني المروءة والهداية[١] . وقد كان لذلك دافعان : حب الاسلام والغيرة عليه أولا ، والشعوبية ثانيا .

لقد ذهبت طائفة من الكتاب المسلمين ـ بدافع من حرصها على الاسلام وغيرتها عليه ـ تتسقط كل هنة ومثلبة في طباع الجاهليين وعوائدهم ، فتضخمها وتوسع خرقهـا ، حتى غدت الجاهلية عندهم حياة مظلمة سوداء لا خير فيها ولا نفع في اهلها ، ظنا منهم ان ذلك مما يرفع من قدر الاسلام ، والاسلام في غنى عن هذه المغالاة ، لانه لا شك في انه رفع العـرب طبقات وبرأهم من الوثنيـة و كثير من

---

(١) ينظر فجر الاسلام (طبيعة العقلية العربية) ٣٥ حتى ٥٨ .

الشرور . على ان العرب في الجاهلية كانوا مستعدين الى ان ينهض بهم الاسلام تلك النهضة العظيمة ، فقد كان منهم عقلاء سارعوا الى الاسلام، فكانوا حماته ،والامناء عليه، وناشري الوية في الخافقين، وأولئك هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجنوده من أئمة المسلمين ، وقد كان في تلك البيئة من المثل العليا في المروءة والكرامة والشرف والحياء والغيرة والايثار والنجدة والوفاء، ما اقرها الاسلام وشجع عليها ، وان الاسلام حين جبَّ رذائل الجاهلية كان قد اقر فضائلها ،وبارك في كثير من عوائدها التي توافق الاسلام ولا تضاده . هذا هو الدافع الاول الذي نسب للجاهلية كل بدعة والصق بها كل منقصة .

أما الدافع الاخر فهو : الشعوبية التي حمل الفرس رايتها ، ثأراً لماضيهم المهان وحمية لدينهم الذي عفّى عليه الاسلام ، فما فتئوا منذ غدروا بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب يكيدون للعرب ويفترون على تاريخهم وماضيهم ، بل لم يسلم حتى الاسلام من بدعهم وضلالاتهم حيث ادخلوا فيه ما هو برىء منه من مظاهر المجوسية ، وشعائر المانوية، وشذوذ المزدكية . وكانت الجاهلية أقرب تلك السبل اليهم ، فنسبوا لأهلها كل ضلالة وجردوهم من كل مكرمة، ولابي عبيدة ، وعلاّن الشعوبي ، وبشار ، في ذلك اليد الطولى [1].

وما زال بعض الباحثين من شرقيين ومستشرقين يرددون تلك الأقوال السقيمة على الرغم من تعاقب الاعصار ، يقول خدا بخش

---

(١) ينظر العقد الفريد ٢/٨٧–٨٩

غامزاً شرف العرب :[1]

« لقد كانت الناحية الخلقية عند الجاهليين في أشد اوقات جزرها قبيل الاسلام فلم يكن اخلاص الرجل لزوجته شديدا ، وكان يدعوها الى معاشرة غيره من الرجال » أما رينان فيجرد العرب من كل مكانة سياسية وثقافية ودينية[2] . ويقول آخر : « ان العصر الجاهلي عصر ظلام حالك »[3] الى غير ذلك مما يقال .

ولا أريد هنا أن أضفي على العرب أكثر مما لديهم ، وأصفهم بصفات ليست فيهم ، بل أريد أن اقول: إن العرب امة من الامم لها فضائلها ورذائلها ، مثلما لكل الامم والشعوب فضائل ورذائل ، ولها كذلك نصيب من الحضارة والمعرفة في عهدها الغابر ، فقد ورثت الجزيرة تراثا جليلا خلفته الأجيال العربية ، حيث نجد المعالم الناطقة بالمجد العريق ، وبخاصة في القسم الجنوبي من بلاد اليمن السعيدة . فقد قامت دول معين وسبأ وحمير ، وفي الحجْر حيث وجدت لحيان وثمود ، وفي بطرا ازدهرت دولة الأنباط . والقرآن الكريم – وكفى به شاهداً – يصف دولة سبأ وما كانت عليه من ترف ونعمة ، قال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربٌ غفور »[4] .

وقد أشاد المعنيون بالحضارة الشرقية من الاوربيين ، فشهدوا

---

(١) Khuda Bukhsh : Contributions to the History of Islam Civilization. V. I. P. 171.

(٢) حضارة العرب – جوستاف لوبون ص ٩٧

(٣) Mohammad Ali : Mohammad the Prophet. P. 6.

(٤) سبأ ١٥ .

بعراقة تلك الحضارة وأثرها فيما حولها من الامم ، يقول سايس « لم يكن المسلمون الذين انطلقوا في الجـزيرة العربية ، وفتحوا العـالم المسيحي ، وأسسوا الممالك ، الا من نسل اولئك الذين كان لهم قديما أثر عميق في مصير الشرق »[1] و كذلك يدهش هومل لما كان لعرب الجنوب من قلاع وحصون ونقوش ، وأثر حضارتهم في العبرانيين واليونان[2] .

وحال العرب في جاهليتهم الاولى - وحتى قبل الاسلام - تنقض الصورة الخاطئة التي جعلت المجتمع الجاهلي معزولا متأخراً ، لا يرتبط بأسباب الحضارة والعمران ، ولم يتأثر بالامم المجاورة .

لقد كان العرب الجاهليون على صلة وثيقة بحضارة العالم القديم ، فضلاً عن حضارتهم العريقة ، وقد كانت الصلات قائمة بين العرب وغيرهم من فرس وروم وهنود ، و كان من مظاهر ذلك إمارة المناذرة في العراق والغساسنة في الشام ، اللتان أتاحتا لثقافة الفرس و الروم أن تدخل الجـزيرة وتمتزج بثقافة العرب . وقد اتيح للعرب الكثير من الوسائل التي جعلتهم يفيدون من خبرات الامم الاخرى وعلومهم ، فمن ذلك : الاسواق و المواسم التي كانت تقام في انحاء مختلفة من الجزيرة ، كانت الاسواق ملتقى العرب على اختلاف منازلهم وثقافاتهم يقصدها التجار - من العـرب والعجم - من تجار فارس ، والـروم ، والهند ، والصين ، فيكون الاخـذ والعطاء وتبادل المتـاع ، ومن البدهي أن تلتقي الثقافات والعقول ، فيفيد بعض من بعض من الخبرة والصناعة والعلم ، وحتى العادات والتقاليد .

---

(١) A. H. Sayce : Early Isreal. p. 128.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٢/٢٧٧ وما بعدها .

وقد ذكر محمد بن حبيب : ان كثيراً من تجار الامم المحيطة ببلاد العرب كانوا ينتقلون الى الجزيرة كما تفعل تجار فارس والروم حينما توافي بسوق المشقر ، يقطعون اليها البحر بيباعاتها[1] .

وقال ابو علي المرزوقي : « ثم يرتحلون منها (من صحار) الى دبا ، وكانت احدى فرض العرب يجتمع بها تجار الهند والسند والصين واهل المشرق والمغرب ، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب فيشترون بها بيوع العرب »[2] .

والعرب انفسهم كانوا يسافرون الى بلاد الروم والفرس والاحباش ، منهم التجار الذين يحملون بضائعهم الى اقاصى البلاد ، ومن اولئك تجار قريش كهاشم وكان متجره الى الشام وقد مات بغزة ، وعبد شمس ومتجره الى الحبشة ، وعبد المطلب ومتجره الى اليمن ونوفل ومتجره الى العراق ، وهؤلاء هم اصحاب الايلاف من قريش[3] .

وكان من العرب من يتعرض لعطاء الملوك ، كالشعراء ، ورؤساء القبائل ، وذوي الفصاحة المتصلين بالملوك المنادمين لهم ، وما ذكر النابغة وحسان في مجالس المناذرة والغساسنة بمنكر ، وقد عرفت منادمة الربيع بن زياد للنعمان بن المنذر ، وقصة وفد بني عامر وبلاء لبيد في مجلس النعمان[4] . وان صحت رواية وفود العرب على كسرى وخطبهم في ذلك فرحلتهم تشمل مجموعات كبيرة من العرب ، غير مقتصرة على الافراد . وكان من العرب من ساح في الارض طلباً

---

(١) المحبر ص ٢٦٣ وما بعدها
(٢) الازمنة والامكنة ٢/١٦٢
(٣) المحبر ١٦٢ والسيرة ١/٤٧
(٤) الاغاني ١/٩٢

للهداية والعلم ، مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، الـذي شك في الاوثان ورحل يطلب دين ابراهيم حتى بلغ الموصل وجال في الشام[1] ، والحارث ابن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب وضـرب العود بفارس واليمن[2] ، وغير هؤلاء كثير .

وكان من اسباب التمازج الحضاري في المجتمع الجاهـلي ايضا ، الجاليات الاجنبية التي كانت تفد الى الجزيرة فتمكث فيهـا زمانا ، وقد يتخذ بعضهـا الجزيرة موطنـا ومقاما ، وطبيعي ان هؤلاء من جنسيات واديان مختلفة ، وعقليات وثقافات متباينة ، فمنهم النصراني واليهودي ، والمجوسي ، ومنهم الـرومي ، والحبشـي ، والفارسي والهندي[3] . ومن هؤلاء من جاء مبشرا بدين كالنصاري الذين اقاموا البيع والصوامع والاديرة في المدن والقرى ، ومنهم من جاء طالبـا الربح والتجارة ، او العمل والكسب ، او التجسس على العرب في ديارهم[4] . ولا شك ان كثيرا من هؤلاء كان مكسبه عن طريق نشر اللهو والمجون في الحانات ، حيث الخمر والغناء والرقص .

ومن تلك الصلات ، وذلك التمازج البشري بين العرب والاقوام الاخرى ، افاد العرب و كسبوا ثقافتين : الاولى ورثوها عن اسلافهم ، والثانية اقتبسوها من الامم المجاورة .

---

(١) السيرة ٧٦/١ والاغاني ٢٦/٣ ط الدار

(٢) طبقات الامم ـ صاعد الاندلسي ص ٧٤ ط السعادة

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (مكة) وفي المحبر ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ ذكر لابناء الحبشيات . وفي اسد الغابة ذكر للروم والروميات انظر مثلا ٢١٢/١ ، ٢٣٢/٤ ، ١٩٤/٥ .

(٤) Oleary : Arabia before Mohammad. p. 39.

وقد استطاع مؤلفو المسلمين ، على بعد الشقة ، ان يحفظوا للمتأخرين جوانب من معارف الجاهلية وعلومهم ، كما حفظ الشعر الكثير من تلك المعارف .

(٢)

لقد كان للعرب علم بالنجوم ومواقعها ومسالكها والوانها ومطالعها وانوائها ، وعرفوا منها أوقات الخصب ، وأزمان المحل ، ومهب الرياح ، وسقوط المطر ، واهتدوا بها في ظلمات الليل ، قال الجاحظ : « وعرفوا الانواء ونجوم الاهتداء ، لان من كان بالصحاصح الاماليس - حيث لا امارة ولا هادي مع حاجته الى بعد الشقة - مضطر الى التماس ماينجيه ويؤديه ، ولحاجته الى الغيث ، وفراره من الجدب ، وضنه بالحياة ، اضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث ، ولانه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب ، ويرى التعاقب بينها ، والنجوم الثوابت فيها . وما يسير منها مجتمعا ، وما يسير منها فاردا ، وما يكون منها راجعا ومستقيما »[١] .

وكذلك يقول صاعد الاندلسي : « كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة »[٢] . ويذكر ابن قتيبة : ان العرب أفادوا مما عند الكلدانيين (الصابئة عبدة الكواكب) ، وبين أسماء البروج

---

(١) الحيوان ٦/٣٠

(٢) طبقات الامم ص ٤٥ بيروت

والكواكب في العربية والكلدانية شبه كبير فبرج الثور هو (ثورا) في الكلدانية والجدي (كديا) والمريخ (مرادخ) وهكذا ، أما السرطان فنفسه في اللغتين[1] ، واشتهرت بعض القبائل بخبرتها الواسعة بمواقع النجوم وأنوائها مثل قبيلة مُرَّة ، وبني حارثة بن كاب ، و كثر ذكر الكواكب في الشعر ، كالفرقدين والسماكين ، وبنات نعش ، والشعرى ، والجوزاء ، والعيوق ، وغيرها . و كان نظرهم دقيقاً ثاقباً في المطر والرياح ومهابها ، والسحاب وأشكاله ومواسمه ، واللغة العربية غنية بأسماء السحب وانواع الرياح وضروب القطر ، وقد افرد ابن قتيبة لذلك كتاباً (الأنواء)[2] - نقلنا عنه قبل قليل - كما الف ابو زيد كتاب (المطر)[3] ، وعقد الثعالبي فصلاً في كتابه (فقه اللغة)[4] اسماه (الاثار العلوية) ، تحدث فيه عن الرياح والسحب والامطار والرعود والبروق وما الى ذلك . وقلما يخلو من هذه الموضوعات كتاب من كتب اللغة .

و كان للعرب المام بالطب والبيطرة ،وهي جملة معارف وخبرات توارثها الناس خلفا عن سلف ، ومن الطبيعي الا يكون طبهم قائما على العلم المنظم الدقيق ، بل هي معارف وملاحظات قد يصاحبها الخطأ في كثير من الاحايين ، وقد تدخل الخرافة والرقى في بعض ما لا يعرفون يقول ابن خلدون في ذلك :

---

(١) كتاب الانواء فى مواسم العرب فى صفحات متعددة ط شارل بيلا ١٩٥٦/١٣٧٥

(٢) المصدر السابق

(٣) طبع الكتاب لويس شيخو سنة ١٩٠٨ ضمن البلغة فى شذور اللغة

(٤) فقه اللغة وسر العربية ص ٤٠٣

« وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج »[1] . ومن تلك الخرافات التي أشرنا اليها ظنهم أن دم السادة يشفي من الكلب ، وان عظام الميت تشفى من الجنون ، وقد استخدموا في طبهم الكي بالنار حتى قالوا (آخر الدواء الكي) والتداوي بشراب العسل ، وعصارات بعض النباتات البرية ، وغير ذلك . وقد عرف منهم بعض الأطباء الحاذقين ، كالحارث بن كلدة الثقفي[2] (توفي ١٣هـ) الذي تعلم الطب في بلاد فارس ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من يمرض من أصحابه أن يأتيه ويستوصفه[3] ، وكذلك ابن حذيم التيمي الذي ضرب المثل في خبرته ومهارته بالطب ، فقالوا « أطب من ابن حذيم »[4] .

وكان لعناية العرب بالخيل والابل أن برعوا في البيطرة ، فعرفوا عيوب الحيوان وعاهاته وأدوائه ، وقد هدتهم الحاجة ، ودقة الملاحظة أن عرفوا كل الأمراض والأعراض التي تصيب الحيوان ، فالتمسوا لكل داء دواء . وقد تحدث الجاحظ عن معرفة العرب بالبيطرة فقال :

« كثيراً ما يبتلون بالناب والمخلب ، وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة الى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل ، وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف

---

(١) المقدمة ص ٢١٤ ط مصر .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) طبقات الامم ص ٧٤ والأخبار الطوال ـ الدينوري ص ١٢٢ ط جوتنجن .
(٤) مجمع الأمثال ٢/٥٢ ط بولاق .

الداء والدواء ، لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء »[1] .

وكان للعرب خبرة واسعة بالخيل وبصر دقيق بشياتها وأوصافها ، وما يستحب منها وما يذم فيها، وقد عنوا بسلالاتها وعرفوا أنسابها، وفرقوا بين العتيق منها والهجين، وعرف في ذلك سلمان بن ربيعة الباهلي المعروف بسلمان الخيل، وكان سلمان يميز العتيق من الخيل من هجينها بطول العنق ، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، شك في العتاق والهجن من الخيل « فدعا سلمان بطست من ماء ، فوضعت بالارض ، ثم قدم الخيل فرساً فرساً ، فما ثنى منها سنبكة فشرب جعله هجينا ، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا وذلك لأن في أعناق الهجن قصراً فهي لا تنال الماء على تلك الحال حتى تثني سنابكها ، وأعناق العتاق طوال »[2] . وكان الناس يعجبون بسلمان الباهلي ومن المعجبين به لبيد الشاعر، فقد ذكره في احدى أراجيزه ، مبينا فضل الله عليه بنعمة البصر بالخيل[3] .

ومن معارف العرب التي هداكم اليها الذكاء ، وخصب القريحة، وصفاء الذهن : الفراسة والقيافة . فالفراسة : الاستدلال بمظهر الانسان وشكله وسلامة أعضائه ، على أخلاقه وصفاته وطباعه . والقيافة : تتبع الأثر في الأرض لمعرفة آثار الانسان أو الحيوان ، ولهم في ذلك حذق وبراعة ، فكانوا يعرفون أثر من ضل منهم أو من

---

(١) الحيوان ٦/٢٩ .

(٢) ديوان لبيد ص ٣٣٧ ط الكويت .

(٣) ديوان لبيد القصيدة ٥٨

حيوانهم ، أو طريق عدوهم حين يهرب منهم دالجا في الليل أو سائراً في النهار .

ومن معارفهم - التي يداخلها الظن والمصادفة - العيافة والزجر والطرق بالحصى ، وهي ضرب من التنبؤ - كالكهانة - بمعرفة حركات الطيور والتيمن بها أو التطير منها ، وقد اشتهر منهم بنو أسد وبنو لهب حتى قال قائلهم :[1]

خبير بنو لهب فلاتك ملغيا مقالة لهبي إذا الطير مرت

وقد أوضح الجاحظ جانباً من ذلك فقال : « وأصل التطير من الطير إذا مر بارحا وسانحا ، أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الاعور من الناس أو البهائم ، أو الاعضب أو الابتر زجروا عند ذلك وتطيروا »[2] . وما كان كل العرب على هذه الشاكلة في زجر الطير وضرب الحصى ، بل كان منهم من ينكر ذلك ويتعقل مثل لبيد الذي يقول :[3]

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وكانت عنايتهم بالأنساب ومعرفة الاصول والأحساب ، قد فاقت كل معرفة ، حيث دعتهم العصبية الى أن يحفظوا بدقة كل ما يتعلق بأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، وقد رويت عن كثرة حفظهم وسعة معرفتهم أقاصيص تدعو الى العجب ، فهم يصلون أنسابهم بالأب

---

(١) شرح ابن عقيل ٢/١٥٤

(٢) الحيوان ٣/٤٣٨ وما بعدها . والبارح : الميامن والسانح : المياسر .

(٣) ديوان لبيد ص ١٧٢

الاكبر عدنان أو قحطان ، ويقسمون مراتب النسب الى : فصائل ، وأفخاذ ، وبطون ، وعمائر ، وقبائل ، وشعب . وقد عرف من مشهوري نسابيهم : دغفل بن حنظلة الشيباني ، وزيد بن الكيس النمري وابن لسان الحمرة ، وغيرهم ، كما عرف أبو بكر الصديق بسعة علمه بالأنساب والأيام[1] .

وكما حرصوا على معرفة أنسابهم واصولهم ، الموا بأخبار ايامهم وتاريخ اسلافهم ، وما وقع لهم ولغيرهم من الامم القديمة ، وقد ظهرت تلك المعارف والأخبار في الشعر ، كقصة الفيل وحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، ويوم ذي قار ، وحروب الفجار ، وعرفوا سير الملوك في اليمن ، والحيرة ، والشام ، كما عرفوا أخبار الفرس وحروبهم وملوكهم ، وذلك بسبب اختلاطهم بتلك الامم عن طريق الأسواق والتجارة والرحلات . فقد عرف عن النضر بن الحارث انه كان يذهب الى الحيرة يتعلم من أهلها أخبار الفرس وأساطيرهم ، وسير ملوكهم وقوادهم ، مثل رستم واسفنديار وكسرى ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً - في مكة - فدعا فيه الى الله تعالى . وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشا مما أصاب الامم الخالية ، خلفه النضر في مجلسه إذا قام ، فحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس ، ثم يقول : « والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها »[2]

على أن معرفة العرب بالأخبار والأحداث التاريخية لم تكن

---

(١) السيرة النبوية ١٦٥/١ ط عبدالحميد ١٣٨٣/١٩٦٣ والبيان والتبيين ٧٦/٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر وانظر الاغاني ١٣٨/٤ والاستيعاب ٣٢١/١ .

(٢) السيرة ٣٥٨/١ ط شلبي ورفاقه .

معرفة دقيقة ، بل هي عرضة للتزيد والتحريف ، فان تلك الاخبار كانت متداولة بين الناس بالرواية الشفهية والرواية تقبل الخطأ والتحريف .

وللعرب بعد ذلك حكم بالغة تمثل خبرتهم في الحياة وتجاربهم فيها ، وقد صاغوها بعبارات قصيرة مأنوسة ، كان الناس ـ وما زالوا ـ يتمثلون بها ، لأنها تفصح بصدق عن مكنونات النفس البشرية بعامة . وقد حفظت كتب الأمثال طائفة جليلة منها ، ولعل خير ما ألف من كتب الامثال : كتاب العسكري (جمهرة الامثال) والميداني (مجمع الامثال) والزمخشري (المستقصى في الامثال) . هذا غير ما جاء عند الشعراء من حكم شاعت وصارت مما يستشهد بها الناس في كل زمان ، كحكم زهير ولبيد وطرفة وعبيد بن الأبرص والأفوه الاودي وغيرهم . وقد ذكر الجاحظ جمهوراً من حكماء العرب وذوي الدهاء واللسن ، فقال : « ومن القدماء ممن يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء : نعمان بن عاد ولقيم بن لقمان ، ومجاشع بن درام ... ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصي بن كلاب ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء : أكثم ابن صيفي ، وربيعة بن حذار ، وهرم بن قطبة وعامر بن الظَّرب ، ولبيد بن ربيعة »[1] وكانوا يكتبون تلك الحكم ويحفظونها كما فعل سويد بن الصامت الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده صحيفة فيها حكم لقمان ، وقال الرسول عليه السلام عما فيها : « ان هذا الكلام حسن والذي معي أفضل منه ، قرآن أنزله الله تعالى علي

(١) البيان والتبيين ٣٦٥/١ ط عبدالسلام هارون .

وهو هدى ونور »[1] .

وعلى كل حال ، لم تكن حكم العـرب وأمثالهم نتيجة تفكير فلسفي بعيد ، وانما هي نظرات وخبرات ، صادرة عن طبيعة حياتهم ، ومثلهم ، ونظرتهم الى الحياة والموت ، ومصير الناس ، والخير والشر ومعاتبة الدهر ، وهي مع كل ذلك ، تصوير صادق أمين لفطرتهـم السليمة ، ونفسيتهم الواضحة البسيطة الـتي لا يشوبها ولا يعيبها تعقيد أو غموض .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٢٩٠ ط عبدالحميد .

الفصل الخامس

الحيــاة الدينية

(١)

لقد عرف العهد الجاهلي بالعهد الوثني عهد الشـرك وعباة اصنام من دون الله . غير ان النظرة الفاحصة الممحصة ، تكشف ان وثنية ذلك العهد، لم تكن - كما قد يظن - اعتقادا متينا بالاصنام، فقد كان كثير منهم ، وبخاصة الاعراب ، يسخرون منها ويهزأون بها[1] . ولم يكونوا يؤمنون بان هذه الاوثان والاصنام[2] خالقة مدبرة قادرة ، ولم يكن الشرك اشراكا في وحدانية الله ، فالدلائل تشير - ويكفي ان يكون القـرآن قد نص على ذلك - الى ان عرب الجاهلية كانوا يؤمنون بالله الواحد القوي الخالق الذي بيده الامر ، وكان اتخاذهم الاصنام على انها وسائط وشفاعات تقربهم الى الله سبحانه ، فالشرك هنا يلحظ من تقديس اصنام تنسب لها القدرة على الشفاعة لا الشرك في وحدانية الله . قال صاعد الاندلسي : « وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة الله تعالى . وانما كانت عبادتهم ضربا من التدين بدين

---

(١) الاصنام - ابن الكلبي ص ٣٧

(٢) يفرق بين الصنم والوثن في ان الاول يكون على هيئة تمثال. والوثن يكون حجرا وقد يسمى الصنم بالوثن ايضا انظر الاصنام ص ٣٣ و ٥٣ في تحديد كل منها

الصابئة في تعظيم الكواكب والاصنام الممثلة بها في الهياكل، لا على مايعتقده الجهال بديانات الامم واراء الفرق، من ان عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي الآلهة الخالقة للعالم، ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة ولا واربه صاحب العقل، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى « مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »[1] وقال تعالى في صفة الجاهليين الذين يتقربون اليه باصنامهم : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[2] وقد جاءت الآيات الكريمة لتدل على ايمانهم بالله الخالق القادر الواحد الذي بيده امر كل شيء.. قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله »[3]، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون »[4] « قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون »[5].

وقد عبّر أوس بن حجر في بيت عن اعتقاده بالله الذي هو اكبر من كل المعبودات، مع اقراره باحترام اللات والعزى، قال :[6]

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله ان الله منهن أكبر

---

(١) طبقات الامم ـ صاعد بن احمد الاندلسي ص ٢٤ وسورة الزمر ٣
(٢) سورة يونس ١٨
(٣) لقمان ٢٥
(٤) الزخرف ٨٧
(٥) يونس ٣١
(٦) الاصنام ص ٧ وانظر عن التوحيد في الشعر الجاهلي (الحياة العربية) للدكتور الحوفي ص ٤٠٢ ـ ٤١٧

وهذا النابغة الذبياني يقسم بالله الذي ليس وراءه شيء ولا اكبر منه :[1]

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

ونجد في الشعر الجاهلي الدلائل الكثيرة الواضحة الصريحة التي تؤكد ايمان الجاهليين بالله وتوحيده والقسم به، وانه خالق الخلق وواهب النعم . يقول عبيد بن الابرص :[2]

حلفت بالله ان الله ذو نعم ... لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

وقد آمنوا بان الله هو الحافظ الذي يلوذ الناس برحمته، قال افنون التغلبي :[3]

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي

اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وان الله يجزي على العمل الصالح، قال ابو قيس بن الاسلت :[4]

أجرت مخلدا ودفعت عنه ... وعند الله صالح ما اتيت

ويقول زهير بان الله عالم الغيب، ومطلع على الضمائر واسرار النفوس :[5]

فمن مبلغ الاحلاف عني رسالة

وذبيان هل اقسمتم كل مقسم

---

(١) ديوان النابغة ص ٥٦ ط السعادة . العقد الثمين ص ٥

(٢) ديوان عبيد ص ٢٤ ط ليال لقد ذهب بعض المستشرقين الى ان الرواة المسلمين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين مكان كلمة (اللات) . وهذا فرض بعيد فيه كثير من التعسف ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٦/٣٠٥

(٣) المفضليات ٥٢٣ ط ليال

(٤) الاغاني ١٤/٣ ط الدار

(٥) ديوان زهير ص ١٨ ط الدار

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى ومهما يُكتم اللهُ يعلم

ويقسم اخر بالله عالم الاسرار ومحيي العظام البيض وهي رميم:[1]

اما والذي لا يعلم السر غيره

ويحيي العظام البيض وهي رميم

لقد كنت اختار القرى طاوي الحشا

محافظة من ان يقال لئيم

وفي بيت حاتم السابق ايمان بالبعث والحساب فالله يحيي الخلق بعد موتهم وان كانوا عظاما، وقد اوضح لبيد بان للناس يوما يقفون فيه بين يدي الله، وتكشف اعمالهم، وتجزى كل نفس ما كسبت:[2]

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه

اذا كشّفت عند الاله المحاصل

وكذلك يذكر علاف بن شهاب التيمي فكرة الحساب والثواب والعقاب يقول:[3]

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة

فاخذت منه خطة المغتال

وعلمت ان الله جازٍ عبده

يوم الحساب بأحسن الاعمال

واذا كان هذا ايمان العرب بالله ووحدانيته وقدرته فكيف

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ١٧١٥/٤

(٢) ديوان لبيد ص ٢٥٧

(٣) بلوغ الارب ٢٧٧/٢ ط ٢ ١٩٢٤ - ١٣٤٣

كانوا يوفقون بين هذا الايمان وبين تقديس اوثان واصنام ، واشراكها في العبادة والتقديس مع الله سبحانه ؟ ان للعرب في ذلك تعليلات لا يخلو بعضها من منطق مقبول ، فهم يقولون : « ليس لنا اهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة ، لعظمته فعبدناها (اي الاصنام) لتقربنا اليه تعالى »[1] ومنهم من يقول : « جعلنا الاصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى ، كما ان الكعبة قبلة في عبادته »[2] .

واذا ما عرفنا كيف بدأ تقديس الاصنام وعبادتها نستطيع ان نتبين الاسباب التي جعلت غمار الناس يتشبثون بها ويبتعدون عن دين التوحيد الاول دين الفطرة - دين ابيهم ابراهيم[3] . وكذلك نستطيع ان نعرف طبيعة تلك العقلية المحافظة المكابرة ، التي وقفت بعنف وشدة بوجه الدين الاسلامي في بيئته الاولى . قال هشام بن محمد الكلبي : « وكان الذي سلخ بهم الى عبادة الاوثان والحجارة ، انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم ، وحبا له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام »[4] وبمرور الزمان نسي الناس العلة في تقديس

---

(١) بلوغ الارب ١٩٧/٢ ط ٢

(٢) المصدر السابق ١٩٧/٢

(٣) ينظر هنا تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٢٠/٥ حيث يذكر رأي رينان في أن العرب موحدون بطبيعتهم مثل سائر الساميين .

(٤) الاصنام ص ٦ وهناك آراء اخرى منها قصة عمرو بن لحي ، والذي أثبتناه هنا ، اقرب الى طبيعة العرب .

الحجارة، على أنها أثر من آثار الكعبة وذكرى لها ، فانتقل التقديس للحجر نفسه ، وتطور الحجر الى صنم ، ثم بدأت الظنون بعد ذلك في خير هذا الصنم وشره ، وكلما امتد العهد واستطال الزمان ، احيطت هذه العبادة بهالة من الغموض المقدس . والناس – منذ كان الناس – تحن الى الموروث الذي تلفه الاسطورة ويكتنفه الغموض ، وقد استحكمت العادة في نفوسهم ، فصاروا يتمسكون بها وينزلونها منهم مكانة فضلى .

والملاحظ أن أم بيئة رسخ فيها الدين ، وتمسك أهلها بالاصنام هي مكة ، قلعة الدين ومجمع أصنام العرب ، بينما نجد أن المناطق الاخرى أقل حماسة لعبادة الاوثان، وبخاصة البادية التي تنظر الى هذه العبادة نظرة غير جادة ، فكثيراً ما يثور الأعرابي على صنمه حينما تتضارب أهواء العابد والمعبود ، من ذلك ما يروى عن رجل من العرب – وتروى لامرىء القيس ايضا – قُتل أبوه فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالازلام ، فخرج السهم ينهيه عن ذلك فقال :[1]

لو كنت ياذا الخلصَ الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

وأتى رجل من بني ملكان الى سعد – صخرة طويلة بأرضهم – بأبل معه يلتمس البركة ، فلما رأت الابل ما على الصخرة من الدم

---

(١) الاصنام ص ٣٥ والسيرة ٩١/١ وانظر حول ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي الحياة العربية ٢٧٧ وما بعدها وينظر هنا رأي نيكلسون حول عدم مبالاة العربي بالدين .

Aliterary Hist. of the Arabs. p. 135.

المهـراق ، نفرت وتفرقت في كل وجه ، فأخذ حجراً رمى به سعداً ثم أنشد :[1]

أتينـا الى سـعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سـعد إلا صخرة بتنوفـة
من الارض لايدعى لغيٍّ ولا رشد

وقد جرت العادة ان يتبع الناس هذا الدين، دون ان يجرأوا على الشك بجدوى هذه العبادة .

(٢)

هذا شأن الكثرة من عرب الجاهلية ، وقد عرفت في ذلك العهد فئة من المستبصرين الذين كانوا يترفعـون عن عبادة تلـك النصب والتماثيل وكانوا يتطلعون الى دين التوحيد ، دين ابراهيم ، على أنه الدين المبرأ من الشك، وقد عرفت تلك الفئة بـ (الأحناف) ودينهم بـ (الحنيفية)[2]. وكانوا قد اعتزلوا الاوثان ، وعافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على النصب لغير الله ، وقال في ذلك قائل منهم : « أني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل الا ماذكر اسم الله عليه »[3] ، كما سخطوا على الخمـر وعافوا شربها ، وقد عاف

---

(١) الاصنام ص ٣٧ والسيرة ٨٥/٤ .

(٢) انظر في الحنيفية وأثرها في شعراء الجاهلية فون كريمر (حول اشعار لبيد)
Von Kremer: Ueber die Gedichte des Labyd. p. 8.

(٣) السيرة النبوية ٢٣٢/١

(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل . صحيح البخاري ٥٠/٥

الخمر ايضا غير هؤلاء من عقلاء العرب ترفعا عما يؤول أمر شاربها الى المهانة والسفه[1] . وقد عرف من الاحناف رهط كبير ، منهم : زيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وصرمة بن أبي أنس ، وامية بن ابي الصلت ، وخالد بن سنان العبسي ، وورقة بن نوفل ، وغيرهم[2] .

ولم تكن الحنيفية امتداداً أو تقليدياً لليهودية او النصرانية ، بل لم يكن بين الديانتين والحنيفية صلة او وشيجة ، وان اطلع بعض رجال الحنيفية على دين اليهود او النصارى ، على النقيض مما يبالغ بعض الكتاب وبخاصة رجال الدين النصارى[3] ، وانما هم على دين العرب القديم دين ابراهيم ، وما كان ابراهيم من اليهود أو النصارى كما نص على ذلك كتاب الله العزيز : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »[4] ، وكذلك لم يكن من المشركين : « إن ابراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين »[5] ، والحنيف هو المسلم (حنيفاً مسلماً) ، قال تعالى : « ثم اوحينا اليكَ

---

(١) مر بنا ذكر من عاف الخمرة من الجاهليين في الحياة الاجتماعية .

(٢) المعارف ـ ابن قتيبة ص ٢٧ـ٢٩ ط الاسلامية وانظر حول الاحناف وافكارهم جواد علي ـ تاريخ العرب ٥/٥٦ـ٦٠ و ٦/٢٨٩ـ٢٩٥ .

(٣) لويس شيخو في شعراء النصرانية ، وقد حاول باطلا ان يقحم اكثر الشعراء الجاهليين ممن ذكروا الله في النصرانية . وينظر في هذا الموضوع راي بلاشير في الاحناف وعلاقتهم بالمسيحية والمانوية تاريخ الادب العربي ١/٦٨ ترجمة ابراهيم كيلاني. وينظر كذلك رأي نيكلسون في الاحناف وعلاقتهم بالمسيحية .
Alit. Hist. of the Arabs. p. 149.

(٤) آل عمران ٦٧

(٥) النحل ١٢٠

ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً »[1] ، وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بالحنيفية السمحة »[2] ، و كذلك قوله عليه السلام : « أحب الاديان عند الله الحنيفية السمحة »[3] ، وجاء ذكر الحنيفية في الشعر بنفس دلالة المسلم ، قال عبدالله بن أنيس :[4]

وقلت له خُذها بضربةِ ماجدٍ حنيفٍ على دين النبيَّ محمد

و كذلك في أبيات لأمامة المزيرية تقول :[5]

تكذب دين الله والمرء احمدا
لعمر الذي امناك ان بئس مايمنى
حباك حنيف آخر الليل طعنةً
ابا عفكٍ خذها على كبر السن

وهكذا يتضح من هذه النصوص ان الاسلام والحنيفية على شرعة واحدة شرعة التوحيد والايمان بالله الواحد الاحد، وما الوثنية الا تشويه لدين ابراهيم وتحريف له وخروج عليه .

لقد كانت الوثنية اهم الاديان التي عرفتها الجزيرة ، واكثرها شيوعا وانتشارا ، وقد شهدت الجزيرة اديانا اخرى غير الوثنية ، كاليهودية والنصرانية ، ولم يكن لاتباع هاتين الديانتين كبير اثر في الجاهليين ، اذ لم تستطع اية منهما ان تدحر الوثنية ، او ان توسع نفوذها .

---

(١) النحل ١٢٣
(٢) طبقات ابن سعد ١٢٨/١ وكذلك ٢٨٧/٢
(٣) اللسان ١٠/ ٤٠٤ وانظر ابن سعد ٢٨٧/٣
(٤) السيرة ٥٨/٢ ودائرة المعارف الاسلامية (حنيف) .
(٥) السيرة ٩٨٢ ودائرة المعارف الاسلامية (حنيف) .

فأما اليهودية: فقد جاء اليهود الى الجزيرة بعد أن طردهم واضطهدهم قياصرة الروم فالتجأ كثير منهم الى الحجاز واليمن[1]. وقد استطاع اليهود في اليمن منذ عصر متقدم ان يهودوا احد ملوك التبابعة وهو ذو نواس، ويحرضوه على التنكيل بنصاري نجران وتحريقهم بالاخدود، والى ذلك تشير الآية الكريمة: « قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد»[2]. على انه سرعان ما استطاع الاحباش النصارى القضاء على ذي نواس سنة ٥٢٥ وحينذاك كسرت شوكة اليهود في اليمن، ولم يبق لهم شأن يذكر هناك. وقد عرف من يهود اليمن كعب الاحبار ووهب بن منبه وكلاهما اسلم وكان لهما يد طولى في الاسرائيليات التي شاعت بين المسلمين.

وفي الحجاز نزلت قبائل كثيرة من اليهود. اهمها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وبنو بهدل، واستوطنوا في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، وقد نزل الاوس والخزرج بجوارهم ثم استطاعوا الاستيلاء على يثرب، وكان همّ اليهود وجهدهم بعد ذلك ان يوقعوا بين القبيلتين العربيتين، ويثيروا الضغائن وينبشوا الاحقاد، فوقعت

---

(١) لم يقطع المؤرخون بزمن دخول اليهود الجزيرة ولا الظروف الواضحة في ذلك، ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٤ حول يهود اليمن و ٩/٦ ـ ١١ حول يهود الحجاز وانظر الحياة العربية حول اليهودية ١٣٦ ـ ١٤٢ وحول النصرانية ص ١٤٢ ـ ١٥٠ وقد استبعد الدكتور الحوفي ان يكون ذانواس صاحب الاخدود ١٥١ ـ ١٥٤

(٢) سورة البروج ٤ ـ ٨

بهم حروب وايام ودماء حتى جاءهم الاسلام برحمته فانجاهم من كيد يهود . وحين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الكتاب في المدنية لينظم أمور المسلمين ، ويحدد علاقتهم بغيرهم ، وادع اليهود وأمنهم، فقال عليه السلام : « وانه من تَبِعَنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم »[1]، وقد أقرهم على دينهم وأكرمهم ، وجعلهم والمسلمين في مقام واحد ، متناصرين[2] . إلا أن اليهود أبوا إلا الغدر والخيانة ونقض العهد ، فناصروا المشركين على المسلمين ، وكادوا للمسلمين كل كيد ، وقد كان القرآن الكريم لهم بالمرصاد ، يفضح كيدهم ويكشف باطلهم ، حتى قامت الحرب بين المسلمين واليهود ، فكان النصر لدين الله والهزيمة لأعدائه المنافقين .

ولم يستطع اليهود أن يتركوا آثارا واضحة في عرب الجزيرة[3] ، بل كان تأثير العرب فيهم واضحا متميزا ، فقد تعرب فريق منهم ، كيهود يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، واصطنعوا اللغة العربية لغة الحديث ، وظهر فيهم بعض الشعراء الذين نظموا في العربية كالسموأل بن عاديا ، في الجاهلية ، وكعب بن الأشرف وجبل بن جوال وسماك اليهودي في الاسلام[4] .

هذا مجمل ما لليهودية في الجزيرة ، أما النصرانية فقد انتشرت عن

---

(١) السيرة النبوية ١/٥٠٣

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) على خلاف ما يحاول ان يثبته بعض المستشرقين من تأثير اليهود فى العرب وفي الدين الاسلامي . انظر تفصيل ذلك فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٦/٨٩ـ٩٤ وكذلك ٦/١٧٢ والحياة العربية ص ١٤٠ وما بعدها وانظر كذلك المرأة فى الشعر الجاهلي ص ١١ـ١٤ .

(٤) السيرة ٢/١٩٧ وما بعدها .

طريق الروم والحبشة ونصارى الحيرة ، وقد اعتنقت بعض القبائل العربية النصرانية ، مثل عاملة وجذام وكلب وقضاعة من الغساسنة في الشام ، وفي العراق تغلب وأياد وبكر ، والعباد في الحيرة . وكان نصارى الشام يعاقبة أو (منو فيستيين) وهم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وينسب هذا المذهب الى يعقوب البرادعي المولود حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد . أما نصارى العراق فقد كانوا نساطرة[١] نسبة الى نسطوريوس المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد ، وهو يرى أن للمسيح طبيعتين أو اقنومين : اقنوم الناسوت واقنوم اللاهوت[٢] . اما في اليمن فكان في نجران نصارى على مذهب اليعاقبة - كالحبشة والغساسنة -[٣] . اما في مكة فكان هناك رقيق حبشي من النصارى[٤] ، ويذكر اوليري[٥] ان في مكة جالية من نصارى الروم .

وابرز شاعر عرف للنصارى في الجاهلية : عدي بن زيد العبادي ، الذي سقطت في شعره اسماء ومصطلحات نصرانية ، وان ظهرت هذه الاسماء والمصطلحات عند شعراء جاهليين من غير النصارى . ومهما يكن من شيء ، فان النصرانية - على الرغم من انتشارها - لم تكن لتترك آثاراً واضحة في حياة العرب[٦] الجاهليين او دينهم ، لأن

---

(١) اسباب النزول - الواحدي ص ٢١٨

(٢) حول المذاهب النصرانية ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٦/٦٨ وما بعدها .

(٣) اسباب النزول ص ٢١٨ ط مصر بعناية احمد صقر

(٤) المصدر السابق ص ٢١٢

(٥) O'leary: Arabia before Mohammad. p. 184.

(٦) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ص ٢٢-٢٤ حيث يبين سبب ضعف النصرانية وقلة تأثيرها في العرب .

النصارى انفسهم لم يكونوا قد تعمقوا دينهم وتمسكوا به بدقة واخلاص، فقد كان دينهم مشوبا بالوثنية ، ذلك ان تعاليم النصرانية كفكرة التثليث وحياة المسيح وغيرها لم تظهر في الشعر الجاهلي ، وكل ماهناك اسماء خاصة بدينهم كالصليب والناقوس والبيعة وغيرها ، وان ذكر هذه الامور لا يدل على ايمان متمكن عميق ، بقدر ما يدل على وصف امور مشاهدة ، وهذا عدي بن زيد الشاعر النصراني لا يرى حرجا في ان يقسم برب الكعبة الوثنية ، كما يقسم برب الصليب ، يقول :[1]

سعى الاعداء لا يألون شرا   عليّ ورب مكة والصليب

وقد عرفت الجزيرة العربية مع هذه الاديان ـ الوثنية واليهودية والنصرانية ـ عبادات اخرى كثيرة ، منها : المجوسية التي دخلت عن طريق الحيرة الى العراق ، فانتشرت في بعض القبائل كقبيلة تميم . والمجوس ثنوية يؤمنون بالهين يديران العالم هما : اله الخير واله الشر . او النور والظلمة[2] .

وظهرت عبادة الكواكب عند بعض القبائل ـ وهي لا شك من اثر الصابئة وبقايا الكلدانيين ـ فيقال ان كنانة عبدت القمر ، وان فريقا من قريش وخزاعة ولخم عبدت نجم الشعري[3] ، وقد جاء فى قوله تعالى : «وانه هو رب الشعرى»[4] تبكيتا لهم لما كانوا ينسبون

---

(١) الاغاني ٢/١٠١ ط الدار

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٨٤ وما بعدها .

(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ٣/١٢٠

(٤) سورة النجم ٤٩

الى هذا النجم من القدرة. ويقول اوليري:[1] ان العزى تمثل كوكب الزهرة واللات رمز للشمس، وقد عبدت الشمس[2] في اليمن، فقد كانت ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وقد حكى القران ذلك على لسان الهدهد حين اخبر سليمان عليه السلام: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون»[3] وقد عرف من اسمائهم: عبدشمس وعبدالعزى. كما عرفت جماعة منهم باصحاب الدهر، وقد حكى القرآن الكريم عقيدتهم بقوله : «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر»[4]. وهؤلاء ينكرون الخالق والبعث والجزاء، ويرون أن العالم لا يخرب ولا يبيد والا كان مخلوقا مبتدعا، قال شداد بن الاسود بن عبدشمس، يرثي كفار قريش يوم بدر[5].

يخبرنا الرسول لسوف نحيا وكيف لقاء اصداء وهام

الى غير ذلك من الديانات والعبادات[6].

هذه الديانات المختلفة، من موحدة او مشوبة بالشرك، متمسكة بدينها او معتادة عليه، مقدسة للوثنية، او ساخطة عليها، وتلك

---

(١) O'leary: Arabia before Mohammad. p. 194.

(٢) انظر في عبادة الكواكب والقبائل التي عبدتها الحياة العربية ٤٢٠ ـ ٤٢١

(٣) سورة النمل ٢٤

(٤) الجاثيه ٢٤

(٥) السيرة ٢/٢٩

(٦) انظر عبادات اخرى عرفت في الجزيرة في كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام القسم الديني.

الحياة المضطربة المختلة ، وكل ذلك كان يدل على ان الفترة فترة قلق وارهاص وتطلع لشيء جديد تتوقعه النفوس ، وتهفو اليه الافئدة دون ان تعي تلك النفوس والافئدة ، كيف ومتى يحدث او يكون[1] . وقد كان لذلك الارهاص اسبابه وعوامله التي ساعدت على دنو زمانه وتعجيل حينه ، من ذلك ان الفترة التي سبقت الاسلام تميزت بامور ، منها : وعي سياسي وميل الى التكتل ، كما حدث في قبائل مملكة كندة ، والمحالفات الكثيرة التي عقدت بين القبائل الاخرى . وكان للاسواق الاثر الفعال في توكيد الشعور المشترك والمشاركة العاطفية وتبادل الافكار وتصفية كثير من المشاكل والاحقاد . وهناك الخطر الخارجي الذي يتمثل في اطماع الفرس والبيزنطيين والاحباش ان يسيطروا على الجزيرة ، فاستيقظ الشعور المشترك بالمصير الواحد ، وكان انتصار قبائل عربية على الفرس في موقعة ذي قار – على الرغم من ان بعض القبائل كانت مع الفرس – عاملا آخر في يقظة العرب وشدهم نحو الاتحاد .

ويلاحظ كذلك الحاجة الى اقامة العدل والامن واجتماع الكلمة ، وبخاصة في مكة حيث اقيم (حلف الفضول) للانتصاف من الظالمين ، وانصاف المظلومين ، وهذا يعني ، الرغبة في اقامة عدالة اجتماعية تردع الطائشين والمتهورين . ثم ارتباك الاحوال الاجتماعية التي عرفت

(١) من ذلك كان تطلع الاحناف ، فقد روت الاخبار ان زيد بن عمرو بن نفيل مر بامية بن ابي الصلت فقال له : (ياباغي الخير هل وجدت ؟ قال لا ، ولم اوت من طلب . قال: ابى علماء اهل الكتاب الا انه منا او منكم او من اهل فلسطين) ، طبقات الشعراء ص ٢٢٠ والاغاني ٤/١٢٢ ط الدار .

بمكة خاصة ، من تفشي الاستغلال والربا والغش واكل اموال اليتامى والقسوة على الضعفاء والعبيد .

لهذا كله ولما يتصل به اثر في ان يتطلع الناس الى حركة تهز هذا المجتمع وتقضي على ما فيه من شرور ونظم فاسدة وعقائد مضطربة[1] ، فجاء الاسلام في تلك الفترة انجع علاج واسمى نظام وأكرم عقيدة وأعظم تشريع ، فلم يلبث العرب ان عارضه بعضهم وهش له بعضهم . ثم لم يلبثوا جميعا ان أقبلوا على اعتناقه والامتزاج به وتفديته بأعز ما يملكون .

---

(١) ليس معنى هذا ان الاسلام كان امتدادا لفكرة بين الناس عمل النبي على اظهارها وتوكيدها كما قد يزعم من ينكر فضل الرسول وقدسية الوحي ، ولكن الاسلام ، كان استجابة لضرورة قائمة جاءت في حينها الموقوت من لدن رحيم عليم ، كتب على رسوله ان يبشر وينذر ويتحمل في سبيل الله ضروبا من الارهاق واللجاجة والاذى .

فهرس المصادر والمراجع

الآلوسي ـ محمود شكري (ت ١٣٤٢هـ)

١ ــ بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ـ بعناية الاثري ط ١٩٢٤م

ابن الاثير ـ علي بن محمد بن الجزري (ت ٦٣٠هـ)

٢ ــ الكامل في التاريخ ـ ط المنيرية مصر ١٣٤٩هـ

٣ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ط المكتبة الاسلامية طهران

ابن الأثير ـ أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٠٦هـ)

٤ ــ النهاية في غريب الحديث و الاثر ـ ط حجر

احمد امين

٥ ــ فجر الاسلام ـ ط ٧ النهضة مصر

الاصفهاني ـ أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي (ت٣٥٦هـ)

٦ ــ الاغاني ـ ط دار الكتب و ط ساسي

الاصمعي - أبو سعيد عبدالملك بن قريب (ت ٢١٥هـ)

٧ ــ الاصمعيات - تحقيق شاكر وهارون ط دار المعارف

الاعشى - ميمون بن قيس (ت ٦٢٩م)

٨ ــ ديوان الاعشى - تحقيق محمد حسين ط مكتبة الجاميز الوارد

٩ ــ العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ـ ط ليدن

البحتري - الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤هـ)

١٠ــ حماسة البحتري ـ ط ليدن ١٩٠٩م
البخاري ـ أبو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ)
١١ــ صحيح البخاري (الجامع الصحيح) ـ ط اوربا
البكري ـ أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ)
١٢ــ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ـ تحقيق مصطفى السقا ١٩٤٥م
البلاذري ـ احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)
١٣ــ أنساب الاشراف ـ الجزء الاول ط دار المعارف والجزء الخامس ط الجامعة العبرية
١٤ــ فتوح البلدان ـ ط المصرية ١٩٣٢م
التبريزي ـ أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٢٠هـ)
١٥ــ شرح الحماسة ـ ط السعادة ١٣٤٦هـ
١٦ــ شرح المعلقات العشر ـ تحقيق كارلوس لايل ط ليدن
الثعالبي ـ عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ)
١٧ــ فقه اللغة وسر العربية ـ نشر سليجمان
الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)
١٨ــ البيان والتبيين ـ تحقيق هارون ط لجنة التأليف ١٩٤٨
١٩ــ الحيوان ـ تحقيق هارون ط الحلبي ١٩٤٥م
جرجي زيدان
٢٠ــ العرب قبل الاسلام ـ بعناية حسين مؤنس
جواد علي

٢١- تاريخ العرب قبل الاسلام - ط المجمع العلمي العراقي - بغداد

ابن الجوزي - أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٦٧هـ)

٢٢- المنتظم في تاريخ الامم والملوك - ط حيدر اباد ١٣٥٩هـ

جوستاف لوبون

٢٣- حضارة العرب - ط الحلبي ١٩٢٥م

الجوهري - أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٨هـ)

٢٤- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - تحقيق احمد عبدالغفور

حاتم الطائي

٢٥- ديوان حاتم الطائي - ط ليدن ١٨٧٢م

حافظ وهبة

٢٦- جزيرة العرب في القرن العشرين - ط القاهرة ١٩٤٦م

ابن حبيب - محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ)

٢٧- المحبر - ط الهند ١٩٤٢م

حتي - فيليب حتي وجرجي وجبور

٢٨- تاريخ العرب مطول - ط الكشاف ١٩٥٢م

حسان بن ثابت - الخزرجي الانصاري (ت ٥٤هـ)

٢٩- ديوان حسان بن ثابت - ط هيرشفيلد ليدن ١٩١٠م

الحصري - أبو اسحق ابراهيم بن علي القيرواني (ت ٤٥٣هـ)

٣٠- زهر الآداب - ط السعادة ١٩٥٣م

الحطيئة - جرول بن اوس (ت ٣٠هـ)

٣١- ديوان الحطيئة - تحقيق نعمان امين طه ط سنة ١٣٧٨هـ

الحوفي - احمد محمد

٣٢ـ الحياة العربية في الشعر الجاهلي ـ ط ٤ نهضة مصر
٣٣ـ المرأة في الشعر الجاهلي ـ ط نهضة مصر ١٩٥٤م
ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨هـ)
٣٤ـ تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ـ ط دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦م
٣٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ ط مصطفى محمد . مصر
الدينوري ـ أبو حنيفة أحمد بن داوود (ت ٢٨٢هـ)
٣٦ـ الاخبار الطوال ـ ط وزارة الارشاد القومي مصر
الزبيدي .. محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)
٣٧ـ تاج العروس في جواهر القاموس
الزمخشري ـ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)
٣٨ـ تفسير الكشاف ـ ط مصر
٣٩ـ الفائق في غريب الحديث ـ نشر البجاوي وابى الفضل ١٩٤٥م
٤٠ـ اعجب العجب في شرح لامية العرب ـ ط حجر
زهير بن ابي سلمى
٤١ـ ديوان زهير شرح ثعلب ـ ط دار الكتب ١٩٤٤م
ابو زيد ـ سعيد بن اوس بن ثابت الانصاري (ت ٢١٥ هـ)
٤٢ـ كتاب المطر ـ ضمن البلغة في شذور اللغة ط شيخو بيروت ١٩٠٨م
ابن سعد ـ محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ)
٤٣ـ الطبقات الكبير ـ ط سخو ليدن
ابن سلام ـ محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ)
٤٤ـ طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود شاكر ط ـ دار المعارف مصر

السهيلي - ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي (ت٥٨١ﻫ)
٤٥ـ الروض الانف ـ ط سنة ١٩١٤
الشهرستاني - محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨ ﻫ)
٤٦ـ الملل والنحل - نشر محمد بدران - القاهرة ١٩٤٧م
شيخو - لويس شيخو اليسوعي (ت ١٩٢٧ م)
٤٧ـ شعراء النصرانية - ط بيروت ١٩٢٦م
صاعد الاندلسي - القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد (ت٤٦٢ﻫ)
٤٨ـ طبقات الامم - ط السعادة مصر
الضبي - المفضل بن محمد الضبي (ت ١٧٠ ﻫ)
٤٩ـ المفضليات - شرح ابن الانباري - نشر كارلوس لايل ط ليدن ١٩٢٠م
الطبري - ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ ﻫ)
٥٠ـ تاريخ الطبري - ط اوربا وط الحسينية
ابن العبري - ابو الفرج غريفوريوس بن هارون المالطي (ت ٦٨٥ ﻫ)
٥١ـ مختصر الدول - ط بيروت
ابن عبد البر - ابو عمر يوسف بن عبدالله النمري القرطبي (ت ٤٦٣ ﻫ)
٥٢ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب - تحقيق محمد البجاوي - ط نهضة مصر
٥٣ـ الانباه على قبائل الرواة - ط القاهرة ١٣٥٠ ﻫ
ابن عبد ربه الاندلسي - (ت ٣٢٧ ﻫ)

٥٤ـ العقد الفريد ـ تحقيق احمد امين وآخرين ط ١٩٤٦م
عبيد بن الابرص
٥٥ـ ديوان عبيد بن الابرص ـ نشر شارلس ليال ـ ط دار المعارف مصر
ابو عبيدة ـ معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ)
٥٦ـ النقائض ـ تحقيق بيفان ـ ط ليدن ١٩٠٥م
عرام بن الاصبغ السلمى ـ (ت القرن الثالث الهجري)
٥٧ـ اسماء جبال تهامة وسكانها ـ تحقيق هارون ١٣٧٣هـ
عروة بن الورد العبسي
٥٨ـ ديوان عروة بن الورد ـ شرح ابن السكيت ـ ط ابن ابي شنب الجزائر ١٩٢٦
العلي ـ صالح احمد العلي
٥٩ـ محاضرات في تاريخ العرب ـ ط ٣ بغداد ١٩٦٤
الغزي ـ نجم الدين
٦٠ـ الكواكب السائرة ـ ط بيروت ١٩٤٥م
ابو الفداء ـ عماد الدين اسماعيل صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ)
٦١ـ المختصر في اخبار البشر ـ ط الحسينية مصر
الفرزدق ـ همام بن غالب (ت ١١٠ هـ)
٦٢ـ ديوان الفرزدق ـ ط الصاوي
فروخ ـ عمر فروخ
٦٣ـ تاريخ الجاهلية ـ ط بيروت ١٩٦٤م
ابن الفقيه ـ ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني (ت ٣٦٥ هـ)

٦٤ـ مختصر كتاب البلدان - نشر دي غويه ط ليدن ١٨٨٥م
الفيروزابادي - مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٦ هـ)
٦٥ـ القاموس المحيط - ط ٢ مصر
القالي - ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)
٦٦ـ امالي القالي (الامالي والنوادر) - ط السعادة مصر ١٩٥٣م
ابن قتيبة - ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)
٦٧ـ كتاب الاشربة - تحقيق محمد كرد علي - ط دمشق ١٩٤٧م
٦٨ـ كتاب الانواء في مواسم العرب - نشر شارل بيلا - ط الهند ١٩٥٦م
٦٩ـ الشعر والشعراء - ط ليدن ١٩٠٤م
٧٠ـ عيون الاخبار - ط دار الكتب ١٩٢٥م
٧١ـ المعارف - ط دار الكتب ١٩٦٠م
ابن الكلبي - ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٥هـ)
٧٢ـ الاصنام - تحقيق احمد زكي - ط دار الكتب ١٩٢٤م
لبيد بن ربيعة العامري - (ت ٤٠هـ)
٧٣ـ ديوان لبيد بن ربيعة - تحقيق احسان عباس ط الكويت ١٩٦٢م
المسعودي - علي بن الحسين (ت ٣٤٥هـ)
٧٤ـ مروج الذهب - ط محيى الدين عبدالحميد
ابن مسكويه - أبو علي احمد بن محمد (ت ٤٢١هـ)
٧٥ـ تجارب الامم - نشر كايتاني - ط ليدن ١٩٠٩م
المرزوقي - أبو علي احمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ)
٧٦ـ الازمنة والامكنة - ط دائرة المعارف الهند ١٣٣٢هـ

٧٧ـ شرح ديوان الحماسة ـ تحقيق احمد امين وهارون ط ١٩٥١م
ابن منظور ـ جمال الدين محمد بن المكرم الافريقي الانصاري
(ت ٧١٦هـ)
٧٨ـ لسان العرب ـ ط بولاق وط صادر بيروت
الميداني - ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)
٧٩ـ مجمع الامثال - ط ٢ السعادة ١٩٥٩م
النابغة الذبياني
٨٠ـ التوضيح والبيان عن شعر نابغة ذبيان - ط السعادة مصر
ابن النديم - ابو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب (ت٣٨٥هـ)
٨١ـ الفهرست - ط لايبزك ١٨٧١م و ط الأستقامة مصر
النويري - احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢ هـ)
٨٢ـ نهاية الارب - ط دار الكتب ١٩٢٩م
ابن هشام - ابو محمد عبدالملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ)
٨٣ـ السيرة النبوية ـ تحقيق السقا واخرين ١٩٥٥م
الهمداني ـ ابو محمد الحسن بن احمد (ت ٣٣٤ هـ)
٨٤ـ صفة جزيرة العرب - نشر محمد النجدي ط السعادة مصر ١٩٥٣م
الواحدي - ابو الحسن علي بن احمد النيسابوري
٨٥ـ اسباب نزول القرآن - تحقيق احمد صقر - ط مصر
الواقدي - محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ)
٨٦ـ المغازي (مغازي رسول الله) - ط السعادة ١٣٦٧هـ
ياقوت ـ شهاب الدين الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ)

٨٧- معجم البلدان - ط لايبزك ١٨٦٦م
اليعقوبي - احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٢ هـ)
٨٨- تاريخ اليعقوبي - ط الغري النجف ١٣٥٨هـ

المراجع الاجنبية

KHUDA BUKHSH :

89- Contributions to the History of Islam Civilization - Calcutta. 1930.

Mohammad Ali :

90- Mohammad the Prophet - Lahore. 1933.

Nicholson (R. A.) :

91 A Literary History of the Arabs - London 1941.

O'Leary (De Lacy) :

92- Arabia before Mohammad 1927.

R. Smith :

93- Kinship and Morriage in old Arabia. London 1907.

Sayce. (A. H.) :

94- Early Isreal.

Von Kremer :

95- Ueber die Cedichte Des Labyd - Wien 1880.

Perceval (Coussin de) :

96- Essai Sur L'Histaire Des Arabes. 1849.

97- Encyclopaedia of Islam.

الفهارس

١ـ فهرس الآيات الكريمة *

* حسب ورودها في الكتاب .

الصفحة	الآيات	السورة ورقم الآية
٨٣ـ٨٤	او لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون .	القصص ٥٧
٨٥	والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون .	النحل ٥ـ٧
٨٥	والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم .	النحل ٨٠
١٠٤	وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .	الزمر ٣
١٠٤	ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم .	يونس ١٨
١٠٤	ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله .	لقمان ٢٥
١٠٤	ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون .	الزخرف ٨٧
١٠٤	قل من يرزقكم من السماء والأرض .	يونس ٣١
١١١	ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً .	آل عمران ٦٧
١١٠	ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين .	النحل ١٢٠

الصفحة	الآيات	السورة ورقم الآية
١١٠–١١١	ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً .	النحل ١٢٣
١١٢	قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود .	البروج ٤
١١٥	وانه هو رب الشعرى .	النجم ٤٩
١١٦	وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله .	النمل ٢٤
١١٦	وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر .	الجاثية ٢٤

٢ـ فهرس الأحاديث*

* حسب ورودها في الكتاب

٣ـ فهرس الامثال

٤ـ فهرس القوافي

اول البيت	القافية	البحر	القائل	الصفحة
وبيض	المسابلا	طويل	لبيد	٧٠
اما والذي	رميم	طويل	حاتم الطائي	١٠٦
فلا تكتمن	يعلم	طويل	زهير بن ابى سلمى	١٠٦
فمن مبلغ	مقسم	طويل	زهير	١٠٥
يخبرنا	وهام	وافر	شداد بن الأسود	١١٦
هلا سألت	تعلمي	كامل	عنترة	٢٦
الاسودان	سقامي	رجز	شاعر	٨٧
لا يفطنون	فطن	كامل	قيس بن عاصم	٦٧
و كن اذا	كانا	وافر	القطامي	٦٥
قوم اذا	وحدانا	بسيط	قريط بن أنيف	٦٤
الا لا يجهلن	الجاهلينا	وافر	عمرو بن كلثوم	٢٨،٢٦،٢٥
ترى اللحز	مهينا	وافر	عمرو بن كلثوم	٦٨
تهددنا	مقتوينا	وافر	عمرو بن كلثوم	٥١
يا عمرو	اسقوني	بسيط	شاعر	٦٦
تكذب	ما يمني	طويل	أمامة المزيرية	١١١
لعمرك	واقيا	طويل	افنون التغلبي	١٠٥
وقد ينبت	كما هيا	طويل	شاعر	٦٦

٥ ـ فهرس الاعلام*

* لم نذكر هنا أعلام المؤلفين الا الذين ورد ذكرهم فى المتن أو كان لهم رأي ٠

٦ ـ فهرس القبائل والامم والاديان ونحوها

٧ ـ فهرس المواضع والبلدان

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

٨ ـ فهرس الموضوعات

من كتب المؤلف المطبوعة

١ ـ لبيد بن ربيعة العامري   نفد
مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٢م

٢ ـ الاسلام والشعر   نفد
مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٦٤م

٣ ـ شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه
مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٦٤م

٤ ـ ديوان العباس بن مرداس السلمي
جمع وتحقيق وتقديم   وزارة الثقافة والاعلام ـ سلسلة التراث
بغداد ١٩٦٨م

٥ ـ شعر النعمان بن بشير الأنصاري
جمع وتحقيق ودراسة   مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٨م

٦ ـ الجاهلية   مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٨م

الخطأ والصواب

على الرغم من العناية المطبعية فقد سقطت بعض الاخطاء التي لا تخفى على القارىء النبيه وأهمها :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٤	٥	والمعادن الى المصهورة	والمعادن المصهورة
١٩	١٠	اذا جعل	إذ جعل
٧٨	١٥	مراعى آخر	مراعى أُخَر
٧٩	١٧	المضر بين	المضربين

مطبعة المعارف ـ بغداد

١٩٦٨/١٠٠٠/٣٩

AL-JAHILIAH

"THE PRE-ISLAMIC AGE"

By.

DR. YAHYA W. AL-JUBURY

(B. A., M. A., PH. D.)

Faculty of Arts University Baghdad

AL-MA'ARIF PRESS - BAGHDAD

1968